

الكندري، لطيفة حسين - ملك، بدر محمد (٢٠١٠م). تربية الطفل في كتاب سير أعلام النبلاء. مجلة الطفولة. جامعة القاهرة: كلية رياض الأطفال. العدد الرابع- يناير.

تربية الطفل في كتاب سير أعلام النبلاء

د. لطيفة حسين الكندري

د. بدر محمد ملك

٣	المُقدِّمة
٤	مبرات الدراسة
٥	هدف الدراسة
٦	الألفاظ ذات الصلة
٧	منهج البحث
٧	أسئلة البحث
٧	حدود الدراسة
٨	الدراسات السابقة
٨	الدراسات العربية
١١	الدراسات الأجنبية
١٢	تعليق على الدراسات السابقة
١٥	الإطار العام لتناول التراث
١٦	نبذة عن الذهبي
١٨	المحور الأول: تربية الطفل
٢٦	المحور الثاني: أخلاقيات المتعلم
٣٠	المحور الثالث: تعامل المربي مع الطفل
٣٤	المحور الرابع: التعامل الواعي مع غرائب التراث
٣٩	أبرز النتائج
٤٠	التوصيات
٤١	أهم المراجع العربية
٤٥	أهم المراجع الأجنبية



## المُقدِّمة

يسعى البحث الراهن إلى تتبع عملية تنمية شخصية النشء ضمن تضاعيف الموروث التربوي الإسلامي عبر تسليط الضوء على كتاب الذهبي؛ سير أعلام النبلاء. الغرض من ذلك المسعى هو استيعاب واستثمار طائفة من كنوز التراث ونفائسه في المنظومة التربوية المعاصرة ورفد الساحة التعليمية فكراً وتطبيقاً استناداً إلى دراسة منهجية. إن تراث الماضي أضحى مدداً لتوسيع نطاق الحاضر إذا تم فهمه وتنقيته وإدماج جذوره النافعة في عملية التنمية والتحديث في المنظومة المجتمعية لعصر المعلوماتية والمعرفة أملاً في تطوير وإثراء الإفادات التراثية في التنشئة الاجتماعية في مجال تربية الطفل على وجه الخصوص.

تشدد الإيسيسكو (٢٠٠٧م) على أن التراث يعتبر من أهم الوسائل الفعالة في ترسيخ الهوية الثقافية (ص ٥). كان التراث الفكري الإسلامي ولم يزل هادياً ومرشداً وملهماً وكنزاً معرفياً ينير درب العقل المسلم، ولا يقف به عند مذهب من المذاهب، أو جيل من الأجيال، أو قرن من القرون، ولذلك فإن التراث الفكري الذي هو إبداع بشري، ليس قيدياً على التجديد والإبداع (عمارة، ٢٠٠٩م) إذا تم الانتفاع منه على الوجه الأمثل. إن فهم الماضي على نحو سليم شرط لفهم وتطوير الحاضر (بكار، ١٤٢٩هـ، ج ١، ص ٨٩). ثم حاجة فعلية لمراجعة تراثنا على ضوء مفاهيمنا المعاصرة (الشاروني، ١٩٩٦م، ص ٨٨).

يتوجه المشتغلون بالتنمية عموماً وقادة دول العالم اليوم إلى وضع الطفولة في سلم أولوياتهم لأن الواقع والبحوث يشيران إلى أن العناية بالطفولة ضمان للنجاح المستقبلي فهي مرحلة التأسيس (Education Week, 2009, p. 3, 19). يرى ابن الجوزي (٥٠٨ - ٥٩٧ هـ) أن الطفولة موسم من مواسم العمر ويطلق عليه موسم الزرع ويرى أن أقوم التقويم ما كان في الصغر (٢٠٠٤ م، ص ٤٠). قال أبو سليمان (٢٠٠٤ م) عن أهمية مرحلة الطفولة بأنها "البذرة التي تحدد نوع الشجرة وطعم الثمرة... الطفل قاعدة الانطلاق" (ص ١٣، ١١٩). وقال الرصافي:

إذا لم يُعَنَّ بالأطفال قــــوم      فهَضُّبَة مجدهم رهــــن انصــــداع

تختلف بدايات الطفولة من مكان إلى آخر ومن ثقافة إلى أخرى (Montgomery, 2003, p. 51) وفي الثقافة الإسلامية فإن تراثنا تناول على امتداده وتنوعه قضايا الطفولة كأحكام شرعية، وحكايات شعبية، وآداب مرعية، وطرائق تعليمية وهي جذيرة بالعناية والإفادة. يتضمن التراث الإسلامي الضخم مضامين ثقافية هي محسسات ومؤشرات فكرية من شأنها أن تكشف مجموعة من نقاط القوة والضعف في مسيرة التربية الإسلامية وأحوال المجتمع المسلم وملاحمه الإنسانية وخصائصه الثقافية. الأبحاث الموسعة وسيلة من وسائل رصد الماضي واستثماره عبر التدبير التربوي واستبصار معطيات

الأسلاف لتدعيم الحاضر وتخصيب الفكر الإنساني وتوسيع آفاقه بالأصالة والمعاصرة معا، فهما نبع النبوغ، وقوام الإبداع، ومعين التنوع.

### مبشرات الدراسة

يتفرع من علم التاريخ العناية بعلم التّراجم والذي يهتم بأخبار وأسماء وأنساب من سلف، وكناهم، وألقابهم، وبلدانهم، وتاريخ ميلادهم ووفياتهم، ومناهج تعليمهم ورأي النُّقاد بمؤهلاتهم العلمية أما الفكر التّربوي فإنّه يتتبع ثقافة الشعوب وأبرز المفكرين والمفكرات بُغية فهم أنماط التربية والتعليم ودور المؤسسات المجتمعية في عملية التنشئة الاجتماعية.

الكاتبون في التربية الإسلامية على وعي تام بأهمية التراث وراثته وعطائه ( Cook, 2003, p. 1327)، والتربية الإسلامية تستند ابتداءً إلى القرآن والسنة، وذلكم التراث الثقافي الهائل الذي أنتجته الأجيال المسلمة المتتالية عبر مناهج رصينة للتعليم والتأقلم (Gunther, 2007, p. 62). ذلك الماضي الذي تمحور حول الدين وعبر الالتقاء الحضاري مع الأمم المتنوعة والأديان المختلفة عبر القرون لا زال في ذاكرة الأمم. إن الكتب التربوية (لابن سحنون والقابسي والغزالي) رغم أهميتها تقدم وجهات نظر أصحابها بينما تعرض كتب التراجم المواقف الشخصية والأحداث العامة كما هي في الواقع (البحثري، ٢٠٠١م، ص ٢٠) ومن خلال المواقف المتنوعة والأشخاص. تقدم كتب التراجم المزيد من الرؤى وتتيح نظرة أرحب وأدق لحركة الأجيال السابقة. وتعد كتب التراجم ذات أهمية كبيرة في دراسة الثقافة العربية لما فيها من معلومات وفيرة كما أن نزعتها الواقعية في التدوين وسرد الأخبار وبيان المشكلات وسبل علاجها والتعريف بالشخصيات والأحداث وكشف الأنشطة والإسهامات التعليمية السابقة كلها مجالات تجعل التراجم الرجالية والنسائية غاية في الأهمية للباحثين وخاصة في المجال التربوي.

لا تستغني النهضة الثقافية اليوم بأي حال من الأحوال عن البحث في التراث وهذا الأمر يستلزم الحفاظ على قيم أصيلة مستمدة من تراثنا إذ هو ماضينا ومن لا ماضي له لن يحيا العصر ولن يؤثر فيه (شومان، ٢٠٠٩م، ص ٧٨). تعد التربية العربية الإسلامية جزءاً من التربية العالمية، وهي مجموعة من المفهومات والأسس العقائدية والفكرية والخلقية والسلوكية والقيم الروحية والجسدية، والمترابطة فيما بينها في إطار فكري واحد، مستندة في مبادئها وقيمها إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ويترتب الإنسان من خلالها تربية كاملة متوازنة من كافة الجوانب، دون تضحية بأي نوع منها على حساب الآخر. أكدت التربية العربية الإسلامية العناية بالطفولة وتعليم الصغار، وتنشئتهم والاهتمام بهم (الجندي، الحميدان، ٢٠٠٥م، باختصار).

إن عودتنا إلى التراث التربوي الإسلامي "سوف تظهر لنا مقدار إسهامنا في تطور الفكر التربوي العالمي ومقدار قدرتنا على أن نسهم اليوم من جديد في صياغة هذا الفكر وتوجيهه" (النقيب،

٢٠٠٤م، ص ٦٩) من ناحية، ومن ناحية أخرى نتجنب أخطاء الماضي، لصنع حاضرنا وتشكيل مستقبلنا على نحو يدجنا في عالم كوني متغير تتجدد إبداعاته على نحو غير مسبوق في تاريخ البشرية (قمبر، ٢٠٠٦م، ص ٧).

ويزداد تراثنا العربي أهمية لأنه جعل للطفل نصيباً فأفسح له مجالات تستحق التتبع والعناية. قَالَ الْأَخْنَفُ<sup>١</sup> عَنْ مَكَانَةِ الْأَطْفَالِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ: "هَمَّ عِمَادُ ظَهْرِنَا، وَثَمْرُ قُلُوبِنَا، وَقِرَّةُ أَعْيُنِنَا... وَهَمَّ الْخَلْفِ مِمَّا بَعْدَنَا، فَكُنْ لَهُمْ أَرْضًا ذَلِيلَةً، وَسَمَاءً ظَلِيلَةً، إِنْ سَأَلُوكَ فَأَعْطِهِمْ، وَإِنْ اسْتَعْتَبُوكَ فَأَعْطِبْهُمْ، وَلَا تَمْنَعْهُمْ رِفْدَكَ فِيمَلُّوا قُرْبَكَ، وَيَسْتَقْلُوا حَيَاتَكَ" (القبالي، ص ١٢٥، البلاذري، ١٦٧٣، الحصري، ص ٢٦٦، ابن حمدون، ص ١١٥٢). إن أثر التربية والتعليم والتقويم في الصغر عظيم وكل المجتمعات البشرية تتخذ من التربية ذريعة لتنمية مكارم الفضائل وغرس المعتقدات وتكريس القيم وانتقالها جيلاً بعد جيل، وقديماً قال المعري "ويلقن الطفل الناشئ ما سمعه من الأكابر، فيلبث معه في الدهر الغابر" (رسالة الغفران). وعن عبد ربه بن سليمان قال: كتبت لي أم الدرداء في لوحتي فيما تعلمني: تعلموا الحكمة صغاراً تعملوا بها كباراً. وإن كل زارع حاصد، ما زرع من خير أو شر.

يرى بعض الباحثين من مثل أبو سليمان (٢٠٠٢ م): "أنّ الطفل وتنميته الفكرية والنفسية، كانت وما تزال تمثل البعد الغائب في أداء مفكري الأمة ودعاة الإصلاح فيها، وكان خطابهم. وما يزال. يعني بالبالغين، ولا بد لنا لإحداث التغيير في وجدان الأمة وبنائها النفسي أن نسد هذه الثغرة ونستعيد هذا البعد، ونهيئ الأسس لنجاح مشروع الإصلاح الإسلامي في النفس والمجتمع".

"ونظراً لقصور بعض الباحثين - في الوقت الحالي - عن البحث والتقصي في التراث الإسلامي لإبراز أفكار السلف من المرين المسلمين وأساليبهم التربوية، ومن ثم الإسهام في تأصيلها" تطالب بعض الدراسات (الجهني، ٢٠٠٧م، ص ٤٨) بسبر غور هذا المجال. هناك دراسات قيمة عن آراء الذهبي في التربية من مثل دراسة محجوب<sup>٢</sup> (٢٠٠٧م، ١٦٥، النحلوي، ١٩٨٩م، ج ٤، ص ٢٩) إلا أن تربية الطفل عند الذهبي من خلال سير أعلام النبلاء حاجة قائمة للمشتغلين بالتراث والطفولة عموماً.

## هدف الدراسة

<sup>١</sup> قَالَ عَنْهُ الذَّهَبِيُّ فِي سِيرِ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ: "أَبُو بَحْرٍ التَّمِيمِيُّ، أَحَدُ مَنْ يُضْرَبُ بِجَلْمِهِ وَسُوْدُودِهِ الْمَثَلُ. وَمِنْ أَقْوَالِهِ: مَا نَارَعَنِي أَحَدٌ إِلَّا أَخَذْتُ أَمْرِي بِأَمْرِهِ، إِنْ كَانَ فَوْقِي عَرَفْتُ لَهُ، وَإِنْ كَانَ دُونِي رَفَعْتُ قَدْرِي عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ مِثْلِي تَفَضَّلْتُ عَلَيْهِ. وَعَنْهُ، قَالَ: لَسْتُ بِخَلِيمٍ، وَلَكِنِّي أَنْحَاءٌ. وَقِيلَ: إِنَّ رَجُلًا خَاصَمَ الْأَخْنَفَ، وَقَالَ: لَعْنُ قُلْتُ وَاحِدَةً، لَسْتُمْ عَشْرًا. فَقَالَ: لَكِنَّكَ إِنْ قُلْتَ عَشْرًا لَمْ تَسْمَعْ وَاحِدَةً. وَعَنْهُ، قَالَ: رَأْسُ الْأَدَبِ آلَةُ الْمُطِيقِ، لَا خَيْرَ فِي قَوْلِ بِلَا فِعْلٍ، وَلَا فِي مَنْظَرِ بِلَا مَخْبَرٍ، وَلَا فِي مَالِ بِلَا جُودٍ، وَلَا فِي صَدِيقِ بِلَا وِفَاءٍ، وَلَا فِي فِقْهِ بِلَا وَرَعٍ، وَلَا فِي صَدَقَةٍ إِلَّا بِبَيَّةٍ، وَلَا فِي حَيَاةٍ إِلَّا بِصِحَّةٍ وَأَمْنٍ" (باختصار). هذه القيم الخالدة فصوص حكم، ونصوص تهذيب نحتاج لتربيتها وممارستها لاسيما في حياة الناشئة يدرسونها صغاراً ويمارسونها صغاراً وكباراً.

<sup>٢</sup> يعانى الكتاب من كثرة الأخطاء المطبعية وعدم دقة الأرقام المذكورة (تاريخ وفاة الذهبي وعدد الأعلام في كتاب سير أعلام النبلاء).

تهدف هذه الدراسة إلى تشجيع الباحثين وإشعار الناشئين بما في تراثنا الإسلامي من روائع تربوية تعكس سماحة التربية الإسلامية ويمكن الاستعانة بها لرفع الوعي التربوي وتأسيس الواقع وتخصيب الفكر وتنميته وتعميق القيم الأخلاقية الكفيلة بتربية النفوس تربية حسنة. الغرض من دراسة "تراثنا هو أن تطور هذا التراث ونرقبه، ونستأنس ونسترشد بما فيه من أفكار حية، وقيم باقية، وطرائق وأساليب صالحة. فنحن قد نتفق مع بعض موضوعات هذا التراث وقد نختلف مع بعضها الآخر؛ لذلك فنحن لسنا ملزمين به إلزاماً مطلقاً" (مذكور، ١٩٩٨م، ج ٣، ص ٨٨٤). وهذه الدراسة لا تحيد عن هذا الهدف العام.

### الألفاظ ذات الصلة

التراث: هو الإرث وما تخلفه الأجيال السابقة لمن يلحق بهم. والمراد بالتراث هو الموروث الديني والفكري والعملية والثقافي والحضاري، الذي يمثل مخزون ذاكرة الأمة الإسلامية عبر تاريخها الحضاري، ومصدر هويتها المميزة لها، سواء منه ذلك الذي أبدعته أمتنا، أم ذلك الذي ورثه المسلمون عن الحضارات السابقة، والذي استوعبه المسلمون وأحيوه وطوعوه واستلهموه وطوروه، فغدا جزءاً أصيلاً من تراث المسلمين (عمارة، ٢٠٠٩م، باختصار).

الصَّغْرُ في اللُّغة: مأخوذ من صغر صغراً: قلَّ حجمه أو سنَّه فهو صغِيرٌ، والجمع: صغار واصطلاحاً: هو وصف يلحق بالإنسان منذ مولده إلى بلوغه الحلم.

الصَّبَا: يطلق الصَّبَا على معانٍ عدَّة منها: الصَّغْر والحداثة، والصَّبِي الصَّغِير دون الغلام، أو من لم يفطم بعد. وعلى هذا فالصَّبَا أخصُّ من الصَّغْر.

التَّمْيِيز: هو أن يصير للصَّغِير وعي وإدراك يفهم به الخطاب إجمالاً.

المراهقة: الرَّهْق: جهل في الإنسان وخفَّة في عقله. يقال: فيه رهق أي حدَّة وخفَّة. وراهق الغلام: قارب الحلم.

الرشد: أن يبلغ الصَّبِي حدَّ التَّكْلِيف صالحاً في دينه مصلحاً لماله (الموسوعة الفقهية، ١٩٩٢م، ج ٢٧، ص ٢٠).

السَّيْر: مفرداً سيرة أي طريقة حياة شخص ما.

التراجم: الترجمة هي نبذة عن حياة (سيرة) شخص ومسيرته وتاريخه.

الأعلام: البارزون في مجال من المجالات.

وعندما نتفحص كلمة الطفل في لغتنا العربية الجميلة نجد أن الطفل هو الولد ما دام ناعماً. والعرب تقول: جارية طِفْلَةٌ إذا كانت صغيرة، وريقة البَشْرَة ناعمة. والطَّفْلَة: الحديثة السِّنُّ. ومن معاني كلمة الطَّفْل: المولود: الصَّبِيُّ يُدْعَى طِفْلاً حين يولد إلى أن يحتلم. ويراد بكلمة الطَّفْل أيضاً: السَّحَاب الصَّغَار أي: جَمَعَتها الريح وضمَّتْها (انظر ابن منظور: لسان العرب). قال ابن عربي في الفتوحات المكية "الطفل

مأخوذ من الطفل وهو ما ينزل من السماء من الندى غدوة وعشية وهو أضعف ما ينزل من السماء من الماء فالطفل من الكبار كالرش والوبل والسكب وغير ذلك من أنواع نزول المطر" (ص ٦٥٥، مناع، ٢٠٠٣ م، ص ٣٨٩).

الطفل في المنظمات العالمية والدساتير الدولية هو أي صبي أو فتاة لم يتجاوزا الثامنة عشرة وهو إنسان فرد وعضو في أسرة ومجتمع في آن معا وله طائفة من الحقوق.

"تربية الطفل عملية تشمل الأفعال والتأثيرات المختلفة التي تستهدف نمو جميع جوانب شخصيته، وتسير به نحو كمال وظائفه عن طريق التكيف مع محيطه، ومن حيث ما تحتاجه هذه الوظائف من أنماط سلوك وقدرات" (بحري، والقطيشات، ٢٠٠٩ م، ص ١٦).

### منهج البحث

تعتمد الدراسة الراهنة على منهج تحليل المحتوى الكيفي (الهندي، ٢٠٠٣ م، ص ١٧، السكري، ٢٠٠٩ م، ص ١٣) لاستنباط معالم تربية الطفل وأبعادها الإنسانية كما يكشف عنها كتاب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، ضمنا أو صراحة.

### أسئلة البحث

١. كيف يمكن تربية الطفل تربية حسنة في ضوء كتاب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي؟
٢. ما أخلاقيات المتعلم في سير أعلام النبلاء؟
٣. كيف يتعامل المرابي مع الطفل استنادا لسير أعلام النبلاء؟
٤. ما ضوابط التعامل الواعي مع غرائب التراث في ضوء معطيات كتاب سير أعلام النبلاء؟

### حدود الدراسة

تقتصر الدراسة الراهنة على التنقيب في كتاب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي بحثا عن تربية الطفل وما يتصل بمصالحه. ويعتبر الكتاب المذكور من أبرز الكتب في تراجم الأعلام وأشملها حيث يتضمن أعلام من أنحاء العالم الإسلامي من الأندلس غربا إلى أقصى المشرق؛ من عصر النبوة والخلافة الراشدة حتى نهاية المئة السابعة. ويقع الكتاب في ٢٨ مجلدا تتضمن المجلدات مقدمة موسعة وفهارس للكتاب في مجلدين وبلغ عدد التراجم ٥٩٢٥ ترجمة تحتوى على أهم الأحداث في حياتهم وجوانب من تفاعلهم مع المجتمع وأحوال الثقافة حينذاك.

لقد تم اختيار كتاب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي وهو من عيون التراث الإسلامي لسعة وغزارة أخباره ولتمييزه عن غيره من الكتب التي ألفت في بابيه، ولأنه كتاب موثوق ومرموق للتراجم في تراثنا حيث يتضمن تراجم لعلماء الشريعة والأدب والفلسفة والتصوف فضلا عن حياة الأمراء والأعيان ولا زال العلماء في كل عصر يستشيرون دقائق الوقائع منه، ويغوصون على لطائف الفرائد فيه. تناول الكتاب المذكور جميع العصور التي سبقت عصر الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ، ١٢٧٤ - ١٣٤٨ م)، علما بأن

الذهبي - في كثير من الحالات - ينتقد الروايات متنا وسندا، بأقصر عبارة، وألخص إشارة مما أتاح لكتابه مصداقية أكبر. الذهبي أستاذ ثقة كبير، وهو مؤرخ الإسلام صاحب المؤلفات المتميزة. والنسخة المعتمدة للدراسة في البحث الراهن هي نسخة مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، وهي ذات قيمة كبيرة عند الباحثين لأنها على قدر كبير من الدقة في الطباعة، والإتقان في التحقيق، والجودة في الإخراج. ولقد استفادت الدراسة أيضا من نسخة موقع المحدث على شبكة الانترنت.

## الدراسات السابقة

### الدراسات العربية

أكد الشحود (٢٠٠٩م) في كتابه؛ *الأساليب الشرعية في تأديب الأطفال* على أن العقوبة جزء من المنهج الإسلامي في إصلاح النفس الإنسانية، وتقويم اعوجاجها. ولكن الإسلام وضع من الشروط والقواعد والضوابط لإيقاع تلك العقوبات، حتى لا يساء استعمالها، وتؤتي ثمارها المرجوة منها. فهي من باب آخر الدواء الكي. تناول البحث العقوبة وتأديب الطفل في الإسلام، وشروطها، وحدوده. قسم الباحث عمله إلى بابين: الباب الأول عن أسلوب تأديب الطفل، والباب الثاني عن قضايا هامة حول تأديب الأطفال. أكد البحث على أن العقوبة في مفهوم التربية الإسلامية عقوبة هادفة وموجهة فليس المقصود منها الانتقام من المخطئ أو إلحاق الضرر به أو إقامة الحد عليه، كما أنها ليست هي الوسيلة الوحيدة في تقويم اعوجاج الأبناء.

وفي بحثه الفكر التربوي وتنشئة الأبناء عند المسلمين الأوائل ذهب سكيك (٢٠٠٨م) إلى أنه لا أحد يستطيع أن ينكر أن التربية الإسلامية هي الأساس المتين الذي قامت عليه حضارة المسلمين والتي استمرت في تفوقها ثمانية قرون لا منافس لها، فقد قدس الإسلام العلم والعلماء وسما بالعلم إلى درجة العبادة وعني بالتربية الروحية والدينية والخلقية. وقد أدرك المسلمون الأوائل أن التربية هي أداة الحضارة ووسيلتها في تخليد ذاتها وضمان انسيابها وتناقلها عبر الأجيال، ويكون فعل التربية في الحضارة هو رسم هذا الفعل وتحديد مداه والتأثير في سلوك الفرد الإنساني حتى ينسجم مع الأنماط الاجتماعية السائدة، وهذا ما أدركه أيضا الصينيون القدماء والاسبرطيون والأثينيون في أهمية التربية في تحديد سلوك حضارتهم. نجد في صدر الإسلام أن تربية الطفل كانت تبدأ في الوسط العائلي بالممارسة وفي عصر الدولتين الأموية والعباسية حين بدأ التمايز الطبقي (الاقتصادي - الاجتماعي) يظهر في المجتمع الإسلامي اختلفت أغراض التربية وأهدافها باختلاف الطبقة الاجتماعية، وقد تميزت في ذلك العصر ثلاث طبقات اجتماعية: الطبقة الوسطى وسواد الشعب: يقوم بتعليمهم معلمو الكتاتيب، طبقة الأمراء والوزراء والأغنياء يقوم بتعليم أبنائهم المؤدبون، أبناء الخلفاء: وهؤلاء يعدون إعدادا خاصا يتناسب وأهمية وعظم المكانة التي سيحتلوها ويقوم على تربيتهم كبار المؤدبين. فالتربية الإسلامية عملية إعداد للإنسان بتثقيفه



ورعايته وإصلاح شأنه وتعهده. أشار البحث إلى مجموعة أعلام التربية الإسلامية من مثل أسد بن الفرات، وابن مسكويه، وابن سحنون، والقابسي، وابن جماعة، وابن سينا، والغزالي، وابن خلدون.

هدفت دراسة الجهني (٢٠٠٧م) إلى التعرف على آراء الغزالي وأفكاره حول تربية الطفل. وقد استخدمت الباحثة المنهج التاريخي والمنهج الاستنباطي في عرض ومعالجة موضوع الدراسة. أكدت الباحثة على أنها لم تجد دراسة أو بحث علمي مستقل قد تناول تربية الطفل عند أبي حامد الغزالي... وأن الدراسات السابقة قد تحدثت ضمناً عن تربية الطفل عند الغزالي ولم يكن هو موضوعها الرئيس (ص ٥٦). توصلت الدراسة إلى عدة نتائج منها:

١. "اشتملت مؤلفات الغزالي ومن كتبوا عنه على مبادئ وأساليب تربوية عديدة موجهة للطفل.  
٢. تتفق التربية الحديثة في مبادئها وأساليبها مع كثير من المبادئ والأساليب التربوية التي نادى بها الغزالي" (ص ٨٧). وأوصت الباحثة بالعديد من التوصيات أهمها: ضرورة عناية المؤسسات التربوية، واعتمادها المباشر على الأصول الإسلامية في بناء الأنظمة التربوية، مع ضرورة الاستفادة من التراث التربوي الإسلامي الزاخر. كما طالبت الدراسة بإجراء الدراسات التي تبرز مناهج وطرائق وأساليب التربية عند علماء المسلمين، وصياغتها بطرق مبسطة تناسب الوالدين وغيرهم من المربين (ص ٨٨).  
اهتم الفايزي (٢٠٠٨م) بدراسة تربية الطفل عند ابن قيم الجوزية. اعتمدت الدراسة على كتاب تحفة المودود بأحكام المولود لابن قيم الجوزية. وبين الباحث أهمية الدراسة من خلال عدة نقاط وهي:  
١. لم يعثر الباحث على دراسة بعنوان تربية الطفل عند ابن قيم الجوزية أو دراسة أفردت آراءه التربوية.

٢. أن دراسة آراء وأفكار ابن قيم الجوزية ضرورة وخاصة أنه علم بارز في ميدان التربية الإسلامية.  
٣. ميدان تربية الطفل من الميادين المستجدة، بينما المتبع لمؤلفات ومصنفات المفكرين في تاريخ التربية الإسلامية يجد الكثير من الآراء والأفكار التربوية التي بحاجة إلى إبرازها والاستفادة منها (ص ٢٦٦).

وخلصت الدراسة إلى بيان أهم أفكار ابن قيم الجوزية ويمكن إيجازها في النقاط التالية:

١. الهدف الرئيس لتربية الطفل هو إخلاص العبودية لله عز وجل.  
٢. كتاب تحفة المودود ليس خاصاً بمرحلة الطفولة؛ بل فيه توجيهات تربوية تشمل مراحل الإنسان.

٣. تناول ابن قيم الجوزية أسس ومبادئ التعلم والتي تتمثل في حسن الفهم وصحة الإدراك والحفظ الجيد والرغبة في التعلم والتدرج في طلب العلم.

٤ . أكد ابن قيم الجوزية على بعض أساليب التربية والتي منها العدل بين الأطفال والقذوة الحسنة، وضرورة مراعاة الظروف الفردية ومراعاة التدرج في التعلم والتعليم.

٥ . التربية ليست عشوائية؛ بل لها مسئولية وبداية المسئولية للأب والأم أو من يقوم مقامهما (ص ٢٨٨، ٢٨٩).

هدفت دراسة الهندي (٢٠٠٣م) إلى الكشف عن مكانة الطفل المسلم عند المسلمين، وبيان أبعاد شخصية الطفل المسلم العقدي والعلمية والثقافية والأخلاقية والاجتماعية والنفسية والعقلية. اعتمد الباحث في دراسته على "منهج تحليل المحتوى الكيفي لما ورد في بعض كتب التراث من آثار، والعمل على تحليلها وتفسيرها مستنتجا منها أبعاد شخصية الطفل المسلم، وآثارها في حياة الفرد والمجتمع" (ص ١٧). احتوت الدراسة على ثلاثة فصول شرح الباحث أهمية الدراسة الراهنة والهدف منها وحدودها في الفصل الأول وفي الفصل الثاني تحدث الباحث عن مكانة الطفل المسلم. وناقش الفصل الثالث أبعاد شخصية الطفل المسلم كما وردت في بعض كتب التراث، وقد قسم الباحث هذا الفصل إلى ستة مباحث وهي تناقش أبعاد مختلفة في شخصية الطفل وهي كالتالي: البعد العقدي، والخلقي، والثقافي والعلمي، والاجتماعي، والاقتصادي. تحفظ لنا كتب التراث وسائل تربية الطفل اجتماعيا حيث كان الطفل يجلس مع أصدقاء أبيه كما ذكر الباحث (ص ١٠٦) فتتسع مداركه.

وينقل الباحث ما يرويه الذهبي: "قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ: حَدَّثَنِي غَيْرٌ وَاحِدٍ أَنَّ عِيسَى بْنَ طَلْحَةَ جَاءَ إِلَى عُزْرَةَ حِينَ قَدِمَ، فَقَالَ عُزْرَةُ لِعُضِّ بْنِيهِ: أَكْشِفْ لِعَمِّكَ رِجْلِي، فَفَعَلَ فَقَالَ عِيسَى: إِنَّا وَاللَّهِ - يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ - مَا أَعَدَدْنَاكَ لِلصَّرَاعِ، وَلَا لِلسَّبَاقِ، وَلَقَدْ أَنْبَى اللَّهُ مِنْكَ لَنَا مَا كُنَّا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ، رَأَيْتَكَ وَعِلْمَكَ. فَقَالَ: مَا عَزَّيْنِي أَحَدٌ مِثْلَكَ".

ناقشت دراسة سهام بدر (٢٠٠٠م) أهم الأفكار التربوية التي يمكن من خلالها وضع استراتيجيات التربية والتعليم في مرحلة الطفولة. وتضمنت الدراسة ثلاثة أجزاء رئيسة وهي:

الجزء الأول: شرحت الباحثة المصطلحات والمفاهيم الأساسية المرتبطة بموضوع الدراسة من حيث مفهومها ومضامينها التربوية.

الجزء الثاني: قامت الباحثة بعرض لتطور الفكر التربوي عبر العصور مع التركيز على الفكر التربوي الإسلامي والغربي. وناقشت الدراسة أهم الآراء التربوية لأبرز أعلام الفكر التربوي في مجال الطفولة في العالمين العربي والغربي.

الجزء الثالث: تناولت الباحثة عرض وتحليل لأهم الاتجاهات التربوية في مجال التربية قبل المدرسية بصفة عامة مع الإشارة إلى بعض النماذج للتربية في رياض الأطفال في بعض المجتمعات المتقدمة. وقدمت الباحثة بعض الرؤى المستقبلية الخاصة برياض الأطفال.

هدفت دراسة الجميل (١٩٩٩م) إلى مقارنة آراء ابن الحاج في تعليم الصبيان في القرن الثامن الهجري بآراء الرواد الذين سبقوه؛ وهم سحنون، وابنه محمد والقابسي. وكان الغرض من الدراسة هو "معرفة مدى التغير الذي طرأ على المشكلة التربوية والتعليمية من حيث أوجه الشبه والاختلاف منذ أن طرحت في القرون الأربعة الأولى وما صارت إليه في العهد المملوكي في القرنين السابع والثامن الهجريين" (ص ٩). وخلص الباحث في دراسته إلى أن هناك آراء تربوية عديدة لابن الحاج من هذه الآراء:

١. إخلاص النية في العمل.
٢. التأكد من مثالية المؤدب في أخلاقه وما يقوم به من عمل.
٣. تحديد سن القبول في المكتب، وتشبيه ذاكرة الصبي في هذه السن بلوح الشمع الذي نطبع عليه ما نريد.

٤. التأكد من تطبيق مبدأ المساواة بين الصبيان في التعليم والمعاملة.
  ٥. احترام مشاعر الصبيان ومنع ما يمكن أن يؤدي إلى جرح مشاعرهم (ص ٣٩ - ٤٠).
- وأكدت الدراسة على أن سحنون وابنه محمد وكذلك القابسي قد عالجوا قضية التربية والتعليم؛ لكن معالجتهم لها لم تكن شاملة بل كانت معظمها أجوبة على أسئلة بعض آباء الصبيان وبعض معلمهم، فكانت إجاباتهم تدور حول هذا الإطار ... وهذا لا يغض من شأنهم حيث إنه في ضوء اجتهاداتهم الفقهية أرسوا الأسس الأولى لما يطلق عليه التعليم الابتدائي عند المسلمين. أما ابن الحاج، فإن آراءه التربوية ربما كانت تنم عن تجربة شخصية في هذا المجال، حيث تحدث عن التربية والتعليم ومشكلاتهما حديث العارف بها المعاش لهمومها (ص ٦٥ - ٦٦).

### الدراسات الأجنبية

قام حسين الهدبة الرشيدى (٢٠٠٥م) بتقديم رسالة الدكتوراه التي حملت عنوان (مفهوم التمركز حول الطفل في الفكر التربوي الإسلامي) في جامعة برمنغهام - المملكة المتحدة - حيث اعتمدت الدراسة على ربط التراث الإسلامي بالواقع التعليمي اليوم في شأن تعليم الطفل. استفادت الدراسة من الفلسفة البراغماتية (العملية) التي ينادي أصحابها اليوم بضرورة تطوير المناهج الدراسية بحيث تتمحور حول الطفل (child-centered curriculum) واهتماماته الحياتية ذات الصبغة الإنسانية المرنة. انتقدت الدراسة التربية الراهنة التي تركز على الكتب والتقيد الحرفي بالحصص الدراسية فهي غير مجدية لأنها تهمل رغبات الطفل وأبعدت الأسرة عن المشاركة الفاعلة في عملية التعلم. أشار الباحث إلى مساهمات التربية الإسلامية في العناية بالطفل حيث قام أعلام الفكر العربي الإسلامي بالحث على حسن تربية الطفل وتفنونوا في تعليمه وكانت نزعتهم التربوية نزعة عملية واقعية (Al-Rashidi, 2005).

هدفت دراسة (Mardan, 2006) إلى دراسة الطفل في الإسلام من الجوانب التالية: النفسية، والاجتماعية، والتربوية. تناول الباحث في دراسته ثمانية فصول عرض في الفصل الأول والثاني معنى الطفولة وتربية الطفل ما قبل الإسلام وخاصة في الأشعار والعادات والتقاليد. تناول الفصل الثالث تربية الطفل في القرآن الكريم وناقش الفصل الرابع تربية الطفل في السنة النبوية وعرض الباحث في هذا الفصل أهمية تكوين الأسرة على أسس سليمة، وأساليب التربية الأخلاقية. وفي الفصل الخامس قدم الباحث نماذج من تربية الطفل عند الصحابة وسلفنا الصالح. وفي الفصل السادس ناقشت الدراسة بعض الآراء التربوية لبعض أعلام الفكر التربوي الإسلامي كابن سحنون، والقابسي، وابن سينا وغيرهم. تحدث الفصل السابع عن تربية الطفل في الفقه الإسلامي. تطرق الفصل الثامن والأخير إلى الحياة التربوية والنفسية للنبي صلى الله عليه وسلم.

هدفت دراسة Gil'adi (١٩٩٢) إلى دراسة الطفل في المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى كما ذكر الباحث. لقد أثنى الباحث في مقدمة دراسته على نخبة من المفكرين والباحثين لجهودهم الكبيرة واهتمامهم بموضوع دراسته من هؤلاء: البرت حوراني، وفرانز روسنتال. بدأ الباحث دراسته بعرض لمحة تاريخية عن الطفولة في الإسلام، وناقش الباحث في الفصل الأول اهتمام المجتمع الإسلامي بالمولود وذلك من خلال عرض كتاب تحفة المودود في أحكام المولود، لابن قيم الجوزية وكذلك قضية تحنيك الطفل. وفي الفصل الثاني تضمنت الدراسة اهتمام المسلمين بتعليم الطفل منذ نعومة أظفاره، وأفردت الدراسة تعليم الطفل عند أبي حامد الغزالي، والعقاب البدني للطفل في الفكر الإسلامي في العصر ذاته. وتطرق الفصل الثالث والأخير إلى الأخلاق والقيم، وناقش مسألة الطفل والموت والصبر والوالدية في المجتمع العربي قديماً وكذلك وأد الطفلة وموقف القرآن الكريم من ذلك. وتوصل الباحث إلى عدة نقاط منها:

١. اهتمام الفقه الإسلامي بالطفل لاسيما من لحظة ولادته وتقديم الأفضل له من مثل الرضاعة، والحضانة. واهتم الإسلام بمرحلة البلوغ.
٢. اهتمام المجتمع الإسلامي بتعليم الطفل منذ الصغر وذلك من خلال إرساله للكتاب ومتابعته.
٣. اهتمام المسلمين بقضية الطفل أيما اهتمام فلذلك كان للطفل مسميات عديدة كالحزور، والصبي، والمولود، والغلام، والصغير.
٤. وجود تمييز واضح في التعامل بين الأنثى والذكر لصالح الذكر في المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى على حد تعبير الباحث.

### تعليق على الدراسات السابقة

ورد في دراسة الشحود (٢٠٠٩م) أن العقوبة وسيلة من وسائل التربية الإسلامية المتعددة وهي تستهدف خير الأبناء وصلاحتهم وتكون مشفوعة بالرحمة والشفقة ومنضبطة بضوابط مشروعة لا تنفصل

عنها وهي في حالة التطبيق تأخذ شكل التدرج والبدء بالعقوبة الأخف فالأشد. ومما جاء في البحث أنه يستحب للمربي أباً كان أو مدرساً أن يعلق السوط على الجدار ليبراه الأولاد فينجزوا، وذكر المؤلف الحديث القائل "عَلِّمُوا السُّوْطَ حَيْثُ يَرَاهُ أَهْلُ الْبَيْتِ، فَإِنَّهُ لَهُمْ أَدَبٌ". وقال الباحث "ويفضل سحنون الضرب على الرجلين... فالضرب في الرجلين آمن، وأحمل للألم في سلامة". ويستند الباحث للتراث فيذكر "كَانَ إِبْرَاهِيمُ بِنُ أَبِي عَبَّالَةَ يُؤَدِّبُ وَلَدَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَخَرَجَ عَلَيْهِ الْوَلِيدُ يَوْمًا وَقَدْ حَمَلَ جَارِيَةً عَلَى ظَهْرِ غُلَامٍ وَهُوَ يَضْرِبُهَا فَقَالَ لَهُ: مَهْ يَا إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ الْجَوَارِيَّ لَا يُضْرَبْنَ عَلَى أَعْجَازِهِنَّ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْقَدَمِ وَالْكَفِّ". ويستنتج الباحث "ومن خلال ما تقدم نجد أن أفضل مكان للتأثير: اليدين والرجلين".

القصة السابقة ذكرها أيضا ابن أبي الدنيا في كتابه *النفقة على العيال* باب تعليم الرجل أهله وتعليم ولده وتأديبهم (٨٤). إن التوجه العام في التربية المعاصرة وقوانينها منع العقاب البدني وليس من الحكمة التسليم المطلق لتوجهه في التراث دون ذكر آراء تراثية مختلفة. إن تأويل النصوص والاستفادة من معطيات الحاضر من الأهمية بمكان حيث يرفض المفكرون أن يتعامل الحاكم أو المعلم أو الزوج أو الأب مع ابنه بالعصا. البدائل العقابية كثيرة وأكثر أمنا وأقل ضررا وخير من العقاب البدني وأقوم سبيلا. أفرط ثلة من الباحثين في الكتابة عن ضوابط العقاب البدني في الفكر الإسلامي دون الالتفات إلى الآراء المتنوعة في التراث ودون الالتفات إلى اللوائح المعمول بها في التعليم اليوم حيث أن معظمها تمنع الضرب بكل صنوفه في كافة صفوفه وتمنع العقاب البدني بكل صراحة وصرامة.

يشير التربويون إلى الآثار السلبية للعقاب البدني منها أن العقاب يؤدي إلى الإساءة للطفل وأنه يعد مهينا للشخص وأنه يحطم الطالب نفسيا وأنه من عوامل نشوء علاقات سيئة بين المعلمين والأطفال وأنه من أسباب القضاء على قدرة الطالب على التفكير الناقد وأنه لا يكبح السلوك السيئ (بدران، ٢٠٠٩م، ص ١٥٩-١٦١). إن الشدة من شأنها قديما وحديثا أن تجعل الطفل يكره معلمه في بعض الكتابات والمدارس بل قد تجعل الصبي يعد معلمه من ألد أعدائه (الوشمي، ٢٠٠٩م، ص ٥٥، أبو سليمان، ٢٠٠٤م، ص ١٢٤-١٢٥، ٢٦٩). إن التحرر من خطاب الخوف غاية غالية في وطننا العربي لإيجاد المواطن الآمن في بيته ومجتمع، والخلل الأكبر قد يكون من تخويف الطفل واستمرار ذلك بأشكال متنوعة وكلما كبر الصغير كبر معه خوفه. ومن زاوية فلسفة التربية فلا بد من التعامل مع الطفل وغيره باحترام منذ صغره فهذا هو النهج السليم. يقول "روسو: لو ضربت ظاهر يد طفل في الشهر السادس من عمره ضربة خفيفة، لبكى وكأنه قد احترق بالنار. ولا تعد ردة الفعل هذه تعبيراً عن الشعور بالألم، وإنما عن الشعور بالإهانة" (ماهرزاده، ٢٠٠١م، ص ٢٢٧).

ومن جانب آخر ذكر الهنيدي (٢٠٠٣م) قصة غريبة قد وردت في كتب التراث حيث كتب الباحث تحت عنوان: الدفاع عن الإسلام "تؤرخ بعض كتب التراث لبعض أطفالنا، أنهم قاموا بالدفاع

عن الإسلام، والذب عنه، والوقوف في وجه أعدائه، ومن ذلك ما روي من أن غلمانا من أهل البحرين خرجوا يلعبون بالصوالة وأسقف البحرين قاعد، فوقعت الكرة على صدره فأخذها، فجعلوا يطلبونها منه، فأبى، فقال غلامهم: سألتك بحق محمد صلى الله عليه وسلم إلا رددتها علينا، فأبى، لعنه الله، وسب الرسول صلى الله عليه وسلم، فأقبلوا عليه بصواليحهم فما زالوا يخبطونه حتى مات، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فوالله ما فرح بفتح ولا غنيمة كفرحته بقتل الغلمان لذلك الأسقف، وقال الآن عز الإسلام، إن أطفالا صغارا شتم نبيهم فغضبوا له وانتصروا" (ص ٣٩).

الحكاية السابقة غريبة وتحتاج لغزلة قبل أن تنشر للعامة والجدير بالمربين أن يتناولوها بالقدر لا بالمدح. تلك القصة ذكرها الأبيهي في المستطرف من كل فن مستظرف ج ٢ ص ٣٩٤، والزخشي في ربيع الأبرار ونصوص الأخبار من غير ذكر سند للحكاية بل ساق المؤلفان القصة المذكورة بصيغة التمرير؛ حكي. إن تلك القصة المضطربة متداولة ومنشورة في مواقع الإنترنت كقصة من قصص المساء للأطفال! وتساق هنا وهناك عند المربين في مقام الشناء والتربية القويمة للناشئة!

هل الخطأ يعالج بخطأ أكبر منه؟ إن عز الإسلام لا يكون بمواقف عاطفية متسعة ترهق الأرواح الإنسانية بسبب زلة. إن مثل تلك القصص الشاذة التي يعرضها الباحثون أحيانا للقارئ في مواقف المدح قد تحث الناشئة - من حيث لا نشعر - على الافتئات على السلطة والإخلال بضوابط الحياة المدنية والتفريط بحقوق الإنسان واستخدام العنف في التعبير عن آرائهم. إن القصص لها مكانة خطيرة في وعي الناشئة فهي قد تحثهم على اقتفاء أثر التراث والتقليد لأبطاله من غير بصيرة لذلك كان انتقاء الأفضل منها ونفي الواهي، وتحري الصحيح مسئولية تربية كبرى. إن البسالة والقوة والغيرة والدفاع عن حياض الدين مقومات التربية الإسلامية لكن مثل تلك القصص قد تزرع التهور وتأسس لوعي يعاكس التسامح ويغايره.

إن مثل تلك القصص والكثير من العبارات غيرها تنم عن رؤية عالم من العلماء في كتاب من الكتب أو حادثة خاصة لها ملامستها وليست بالضرورة تعكس صفاء التربية الإسلامية ولهذا فإن نقد متن وسند الأخبار من الأهمية بمكان كما أن معطيات العصر اليوم تزود الباحث بمناهج للبحث والتفسير. ليس كل ما تم ذكره في التراث البشري هو صواب بل لا بد لنا من النقد البناء الواعي.

من وظائف البحث العلمي تفنيد الأوهام لا تمجيدها، وتصويب الأخطاء لا تبريرها. إن تقدير محاسن التراث ومحامده يختلف عن تقديس النصوص والأشخاص، والعمل البشري من طبيعته - عبر القرون إلى أن يرث الأرض ومن عليها - الوهم والوهن مهما ارتفعت درجة الإتقان. قال جل ثناؤه "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا" (النساء: ٨٢). إن المنهج القويم للتعامل مع الموروث هو التمسك بمنهج يجمع بين معرفة المحاذير وتجنبها من جهة، ومعرفة الحسنات واستثمارها كروائع حضارية مع الاعتزاز بمدى قوة التراث العربي الإسلامي في عمومته من جهة أخرى.

## الإطار العام لتناول التراث

التراث الملهم الحي الفريد هو التراث الذي نوظفه في واقعنا ويحثنا على التجديد والعقلانية والإيمان بلا ترويح للأساطير وبلا تبرير لأفعال غير حضارية. من الحوادث المؤلمة في التراث قتل وصلب المخالفين، وضرب العلماء والتضييق عليهم، وتوريث الأطفال للإمارة والحكم، وحرقت كتب الفلسفة والمنطق والعقيدة بحجة أن عقيدة المؤلف فاسدة أو أنه خالف ما هو معروف حينئذ. إن آفة الاشتغال بالتراث ترسيخ السلطوية والوصاية في حياتنا وإعادة إنتاج المعرفة والتكرار والدوران في دائرة مغلقة مظلمة. ولعل أخطر توظيف للتراث ذلك تناول السطحي الانتهازي الذي يعمد إلى صفحات الماضي من غير منهجية فيتناولها تناولاً يعكس صفونا، ويشتمت صفوفنا ويحمد جهودنا باسم السلفية تارة وتحت راية المعاصرة تارة أخرى. إن خير أسلوب للهروب من عالم اليوم والانسحاب منه هو التباكي على أطلال الأمم. التراث أداة تحرير لا تحدير إذا كانت الإرادة صادقة. تراث التنوير تراث ملهم للناشئة يضمن إبراز معاني التفوق وعناصر الإنجاز ودعائم الإيمان والإحساس بقوة وقيمة الموروث النافع.

"الشرقيون يعيشون في مسارح الماضي الغابر ويميلون إلى الأمور السلبية المسلية المفكهة ويكرهون المبادئ والتعاليم الإيجابية المحرّدة التي تلسعهم وتنبههم من رقادهم العميق المغمور بالأحلام الهادئة" (روائع جبران خليل جبران ، ٢٠٠٥م، ص ٩٥). العودة إلى التراث ومراجعتها ضرورة في التنمية (الميلاد، ٢٠٠٩م، ص ١٥١، عبدالله، ٢٠٠٨م، ص ١٣٩، نبيل علي، ٢٠٠٩م، ص ٧٨-٨٧) لإيجاد المثقف العربي العصري. من أهم ضوابط التعامل مع التراث الحذر من إعطاء صفة القدسية لاجتهادات البشر مما يؤدي إلى التقليد الأعمى والجمود (رجب، ٢٠٠٩م، ص ٢٦). لقد قصر الأجداد بحق الأجداد فما التفتنا إلى المعري وابن رشد وغيرهما إلا بعد فترة من الزمن، ولولا اهتمام الغرب دراسات ابن خلدون لما عرفنا قيمتها الاجتماعية والتاريخية إلا بعد قرون أخرى (السيف، ٢٠٠٦م، ص ٧٧). ولأن تراثنا هو تراث أمة، تميزت بالعالمية، تبعاً لشريعتها العالمية والخاتمة، ولأن هذا التراث قد أبدعته شعوب مختلفة، وقوميات متعددة، وفي ظل ملابسات وتحديات وأحياناً تناقضات متنوعة، فلقد تضمن التراث الكثير من الأسس التي تثري واقعنا (عمارة، ٢٠٠٩م، عيد، ٢٠٠٩م، ص ٢٣٧-٢٣٧، النشار، ٢٠٠٩م، ص ٨٩).

يُتهم التراث بأنه حافل بالعناصر اللاعقلية والخرافية والأفكار الأسطورية (زكريا، ٢٠٠٥م، ص ٣٧) التراث الجيد هو التراث التي تم تصفيته ويعكس أصالة المجتمع المسلم ويمتلك عنصر البقاء والديمومة ويساعد على تجاوز العقبات المعاصرة ولا ييقينا أسرى لحدود زمنية. المعاصرة هي إعادة التاريخ إلى مكانه الطبيعي كمصدر للعبارة والمعرفة لا كمثال أو نموذج للحياة الفاضلة لأن الحياة الصالحة هي أن نعيش وقد

استوعبنا تحديات وحقائق عصرنا (السيف، ٢٠٠٦م، ص ١٣، ٦٣). وفي ظل المتغيرات المعاصرة لا بد من التذكير بأن أهل التراث أولى الناس بنقده نقدا معرفيا بناءً من حين لآخر، قبل أن يمارس الغرياء نقد هذا التراث بمناهجهم أو مباضعهم (العلواني، ٢٠٠٩م، باختصار).

إن المشتغلين بالتربية يمكنهم الاستفادة من التراث الإسلامي الرحب الفسيح إذا نهجوا لنفسهم نهجا قويا وفهما سليما متحررا من الجمود والتقليد، ومتجاوزا تمجيد كل صغيرة وكبيرة دون مسوغ. إن تراثنا الفسيح يمكن أن يلتحم النافع منه بمجريات الحاضر الحي ومعطيات الحضارة وأدواتها فلا نهجر الهوية العربية الإسلامية الثابته خلف تراثنا الواسع المتنوع. قال قاسم أمين "إننا لا نجد عقبه في طريقنا إلى السعادة أصعب احتيازا من شدة تمسكنا بعبادات من سلفنا من غير أن نميز بين تلك العادات: صالحها وطالحها، نعم إن الماضي لا يصح أن يطرح جملة، لكن يجب أن ينظر فيه بالتبصر والروية لمعرفة" (عمارة، ٢٠٠٦م، ص ٤١٢، باختصار، انظر أيضا عيد، ٢٠٠٩م، ص ٢٣٧-٢٣٨) إن التصور الماضي الزاهر للتراث أضر الفكر الإسلامي بل من أسباب التطرف اليوم وجعلت أعناق شبانا مشدودة إلى الوراء (الأنصاري، ٢٠٠٥م، ص ١٠) وكأن الكمال كان في الماضي القديم.

ولعل في دراسة تراثنا التربوي باتجاهاته التربوية المختلفة ما يكشف لنا عن الثابت والمتغير في هذا التراث، وما يكسب الباحثين القدرة على فهم هذا التراث "والاستفادة من هذا التعدد وهذا التنوع في معالجة قضايا التربية. وإن دراستنا لتلك الاتجاهات سوف تكسبنا الإدراك أنها جميعا اجتهادات في إطار الإسلام، وأنها جميعا اتفقت على الجذع المشترك الواحد لتربية الإنسان المسلم في مرحلته التعليمية الأولى، بعد ذلك تأتي مرحلة التخصص، وهنا تظهر تلك الاتجاهات التربوية المختلفة في التربية الإسلامية، كما تعكسها كتب التراث التربوي المعروفة لنا حتى الآن" (مراد، ٢٠٠٧م).

يرى بعض المستشرقين أن التراث الإسلامي يستطيع اليوم أن يثري حياتنا وينشر معاني السلام وغيرها من القيم التي تدل على روعة عبقرية الماضي الذي يمكن أن يسهم بعملية سلام (مورجان، ٢٠٠٨م، ص ١٤، ٢٩٢). إن المنصف لمسيرة حضارتنا يدرك قوة التربية الإسلامية التي أنتجت تطبيق القيم والفضائل، وأنجبت النبلاء والعلماء من الجنسين والأمة مازالت قادرة على استئناف المسار إذا راجعت تراثها وتراجعت عن السقيم من ميراثها وجددت منهجها فالمسيرة مازالت طويلة والذي يتعين علينا فعله لا يقل عن الذي أنجزه سلفنا من أعمال للعقل وتهذيب للنفس وتحسين لنوعية الحياة وتجويد لتربية الناشئة.

**نبذة عن الذهبي**



ألف شمس الدين، أبو عبد الله: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ، ١٢٧٤ - ١٣٤٨ م) كتاب *سير أعلام النبلاء* الذي هو أساس هذه الدراسة. الذهبي تركماني الأصل ولد في العصر المملوكي وكان مولده ووفاته في دمشق. رحل إلى القاهرة وطاف كثيراً من البلدان، وكفّ بصره في آخر حياته. كان دقيقاً في النقد وتحري الحق حتى أنه انتقد حفظ ابنه للقرآن الكريم حيث قال عن ابنه أبي هريرة عبدالرحمن: "حفظ القرآن ثم تشاغل عنه حتى نسيه" (الذهبي، ٢٠٠٨م، ج ١، ص ١٣٤). لُقّب بكثير من الألقاب منها: حافظ، علامة، محقق (الزركلي، ٢٠٠٢م، ج ٥، ص ٣٢٦)، دُرّة القرن الثامن الهجري (الأرناؤوط، ٢٠٠٤م، ج ٩، ص ٦٤٩) مؤرخ الإسلام.

استطاع الذهبي في نصف قرن أن يؤلف ما يقارب من ٢٧٠ مصنفاً (الشيخ، ١٩٩٤م، ص ٣٤٨). كان متبحراً في التاريخ، عالماً بالفقه، متبصراً في علم الحديث رواية ودراية، وقبل أن تشهد مؤلفاته بسعة علمه وعلو كعبه شهد أهل عصره بذلك وخاصة طلابه الذين اعترفوا بتفوقه وتميزه وسعة فضله ونبله. نشأ في أسرة متدنية أكرمها الله بالعلم والخلق والورع. تعلم من عمته "ست الأهل بنت عثمان" إذ كانت لها رواية في الحديث النبوي الشريف وهي أمه بالرضاعة. واستفاد من علم خاله "علي بن سنجر". ومن ذكريات الطفولة يقول الذهبي عن جده عثمان أنه كان يعلمه نطق حرف الراء "فيقول: قُل: «جَرَّةٌ بَرًّا جَرَّةٌ جَوًّا» وكثيراً ما كنتُ أَسْمَعُه يقول: يا مدبري ولمْ اذُر". وعندما أذن له والده بالسفر طلباً للعلم اشترط عليه أن لا يغيب أكثر من أربعة أشهر وكان وفياً بوعدده، باراً بوالده. قال الذهبي "وكنت قد وعدت أبي وحلفت له أني لا أقيم في الرحلة أكثر من أربعة أشهر فخفت أعقه".

ومن أعيان شيوخ الذهبي أحمد الأبرقوهي، وابن الظاهري، وأبو العباس الحجار، ولديه أكثر من ألف شيخ استفاد منهم بطرق تعليمية متعددة معروفة عند أهل الحديث النبوي والمتخصصين بعلم قراءات القرآن الكريم. وتعلم الذهبي من شيخاته حيث أخذ العلم من أكثر من مائة امرأة مثل خديجة بنت يوسف، وزينب بنت أحمد وفاطمة بنت إبراهيم (الشيخ، ١٩٩٤م، ص ٨٣). قال الذهبي عن مؤدّبهِ علي بن محمّد بأنه "كَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خَطًّا وَأَخْبَرَهُمْ بِتَعْلِيمِ الصَّبِيَّانِ. أَقَمْتُ فِي مَكْتَبِهِ أَرْبَعَةَ أَعْوَامٍ وَتَعَلَّمْتُ عِنْدَهُ خَلَائِقًا" (معجم الشيوخ، ١٩٩٧م، ص ٣٢٣).

ومن تلاميذ الذهبي ابن كثير، والصلاح الصفدي الذي قال عن أستاذه الذهبي "حافظ لا يُجَارَى، ولا يفظ لا يُبَارَى، أتقن الحديث ورجاله، ونظر عِلله وأحواله، وعرف تراجم الناس، وأزال الإبهام في تواريخهم... وأخذت عنه وقرأت عليه كثيراً من تصانيفه ولم أجد عنده جمودَ المحدثين ولا كودنة [غلظة] النقلة بل هو فقيه النظر" (الوافي بالوفيات، باختصار). وقال طلاب الذهبي في وصفه: شيخنا وأستاذنا، محدث العصر، بصر لا نظير له وكنز، هو الملجأ إذا نزلت المعضلة إمام الوجود حفظاً، وذهب العصر معنى ولفظاً (انظر: السبكي في طبقاته الكبرى، وابن عماد الحنبلي في شذرات الذهب). قال ابن

حجر العسقلاني ومهر الذهبي "في فن الحديث وجمع فيه المجاميع المفيدة الكثير حتى كان أكثر أهل عصره تصنيفاً".

### المحور الأول: تربية الطفل

يحدثنا الذهبي عن التربية الإسلامية التي تعتني بالطفل من ساعاته وأيامه الأولى في الحياة حيث تخنيك الطفل. عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: وَلَدَتْ أُمِّي، فَبَعَثَتْ بِالْوَلَدِ مَعِيَ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقُلْتُ: هَذَا أَحِي. فَأَخَذَهُ، فَمَضَعَ لَهُ تَمْرَةً، فَحَنَكَهَا بِهَا. وَبَلَغَ حِرْصَ الْأُمّهَاتِ عَلَى إِرْضَاعِ أَطْفَالِهِنَّ مَبْلَغًا عَظِيمًا وَحِرْصَنَ عَلَى تَلْقِينِهِنَّ الشَّهَادَتَيْنِ وَتَرْبِيَتِهِنَّ تَرْبِيَةً حَسَنَةً وَالدَّعْوَةَ الصَّالِحَةَ لَهُمْ. قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ، الْعُمَيْصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ الْأَنْصَارِيَّةُ "لَا أَطِمْ أَنَسًا حَتَّى يَدَعَ الثَّدْيَ ... وَعِنْدَمَا كَبُرَ جَعَلْتُ ثُلُقُنُ أَنْسًا: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قُلْ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَفَعَلْ". وَتَمْضِي أُمُّ سُلَيْمٍ لَتَخْتَارَ الْبَيْئَةَ الْكَرِيمَةَ لِتَرْبِيَةِ ابْنِهَا وَتَخْتَارَهُ خَادِمًا لِلرَّسُولِ وَتَسْأَلُهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ بِالْبَرَكَةِ. عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! خَادِمُكَ أَنَسٌ، ادْعُ اللَّهَ لَهُ. فَقَالَ: (اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ).

وعندما كبر أنس حدثنا عن الهدى النبوي في تربية الطفل كما يحكي لنا كتاب سير أعلام النبلاء. قال أنس بن مالك: أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يَرُورُ أُمَّ سُلَيْمٍ، فَتُحْفَهُ بِالشَّيْءِ وَتَصْنَعُهُ لَهُ، وَأَخَّ لِي أَصْغَرُ مِنِّي، يُكْنَى أَبُو عُمَيْرٍ، فَزَارَنَا يَوْمًا، فَقَالَ: (مَا لِي أَرَى أَبَا عُمَيْرٍ خَائِرَ النَّفْسِ [أحس بالفطور والتكسر]؟). قَالَتْ: مَا تَتْ صَعْوَةٌ [طائر صغير] لَهُ كَانَ يَلْعَبُ بِهَا. فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ، وَيَقُولُ: (يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النَّعِيرُ [تصغير النعر وهو فرخ العصفور]؟).

ولقد استنبط العسقلاني في فتح الباري من القصة السابقة فوائد تربوية منها فضيلة "مسح رأس الصغير للملاطفة، وفيه دعاء الشخص بتصغير اسمه عند عدم الإيذاء، وفيه جواز السؤال عما السائل به عالم لقوله "ما فعل النعير"؟ بعد علمه بأنه مات. وفيه إكرام أقارب الخادم وإظهار المحبة لهم" (المجلد العاشر: كتاب الأدب: باب الكنية للصبي وقيل أن يولد للرجل). والقصة تكشف عن أهمية الحوار مع الصغار فمن علامات التربية الصحيحة شدة الاعتناء بالحوار وترك مساحة للطفل للتعبير عن مشاعره وهوموم وخبراته. إن الانشغال عن الطفل وترك الإسماع له يسبب تربية مشوهة وشخصية جافة محرومة من العاطفة.

وتمضي أيضا مع الذهبي نفسه ليخبرنا عن قصة أخرى: "قَالَ أَنَسٌ: ثَقُلَ ابْنُ لَأْمٍ سُلَيْمٍ، فَخَرَجَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَتَوَدَّى الْعُلَامَ، فَهَيَّأَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ أَمْرَهُ، وَقَالَتْ: لَا تُخْبِرُوهُ. فَرَجَعَ، وَقَدْ سَيَّرَتْ لَهُ عَشَاءَهُ، فَتَعَشَّى، ثُمَّ أَصَابَ مِنْ أَهْلِهِ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ! أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِ أَبِي فُلَانٍ اسْتَعَارُوا عَارِيَةً، فَمَنَعُوهَا، وَطَلَبْتِ مِنْهُمْ، فَسَقَّ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: مَا أَنْصَفُوا. قَالَتْ: فَإِنَّ ابْنَكَ كَانَ عَارِيَةً مِنَ اللَّهِ، فَفَبَصَّه. فَاسْتَرْجَعَ، وَحَمَدَ اللَّهَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ عَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَلَمَّا رَأَهُ، قَالَ: (بَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا). فَحَمَلَتْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، فَوَلَدَتْ لَيْلًا، فَأَرْسَلَتْ بِهِ

معِي، وَأَخَذْتُ تَمْرَاتٍ عَجْوَةٍ [نوع من التمر الجيد]، فَأَنْتَهَيْتُ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-... فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَلَدْتُ أُمَّ سُلَيْمِ اللَّيْلَةِ. فَمَضَعُ بَعْضَ التَّمْرَاتِ بَرِّيْقِهِ، فَأَوْجَرَهُ إِبَّاهُ، فَتَلَمَّظَ الصَّبِيَّ، فَقَالَ: (حُبُّ الْأَنْصَارِ التَّمْرُ). فَقُلْتُ: سَمَّهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: (هُوَ عَبْدُ اللَّهِ)".

والقصة السابقة تؤكد على سنة التحنيك، وحسن تسمية الطفل، وتعلم الأسرة كيف تتعامل مع مسألة موت الأولاد وأن الطفل أمانة ووديعة عند والديه والله وحده هو الوهاب الرزاق القابض والمانع فلا راد لقضائه. ويذكر الذهبي عن العلماء حكايات في الصبر على فقد الأبناء ومنها: "كَانَ ابْنُ عَقِيلٍ<sup>١</sup> دِينًا، حَافِظًا لِلْحُدُودِ، تُؤَيِّ لَهُ ابْنَانِ، فَظَهَرَ مِنْهُ مِنَ الصَّبْرِ مَا يُتَعَجَّبُ مِنْهُ". وقال ابن عقيل عن أسرته "وَأَمَّا أَهْلُ بَيْتِي، فَإِنَّهُمْ أَرَبَاتُ أَقْلَامٍ وَكِتَابَةٌ وَأَدَبٌ".

وَكَانَ أَنَسٌ يَقُولُ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمَدِينَةَ وَأَنَا ابْنُ عَشْرٍ، وَمَاتَ وَأَنَا ابْنُ عِشْرِينَ، وَكُنْتُ أُمَّهَاتِي يَحْتَشِنُنِي عَلَى خِدْمَةِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. فَصَحِبَ أَنَسٌ نَبِيَّهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُمَّ الصُّحْبَةِ، وَلَازَمَهُ أَكْمَلَ الْمَلَازِمَةِ مُنْذُ هَاجَرَ، وَإِلَى أَنْ مَاتَ، وَعَزَا مَعَهُ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَبَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ. ويحدثنا أنس عن طفولته ويلخص خبراته في المنهج التربوي في تربية الأطفال بعبارة جزلة وجيزة فيقول أنس عن تعامل النبي معه: فَخَدَمْتُهُ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا ضَرَبَنِي، وَلَا سَبَّنِي، وَلَا عَبَسَ فِي وَجْهِهِ (الذهبي، ج ٣ ص ٣٩٨).

ورد في صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي أنه وصف تعليم النبي صلى الله عليه وسلم فقال "فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي". وقال الرسول صلى الله عليه وسلم "علموا، ويسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت"<sup>٢</sup>. كان عفوهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يسبق غضبه دائما فلقد ورد في صحيح مسلم: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا... وَاللَّهِ لَقَدْ خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ، مَا عَلِمْتُهُ قَالَ لِشْيٍ صَنَعْتُهُ: لَمْ فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا؟ أَوْ لِشْيٍ تَرَكْتُهُ: هَلَا فَعَلْتُ كَذَا

<sup>١</sup> وَقَالَ ابْنُ عَقِيلٍ: عصمني الله في شبابي بأنواع من العصمة، وقصرت محبتي على العلم، وما خالطت لغاباً قط، ولا عاشرت إلا أمثالي من طلبه العلم، وأنا في عشر الثمانين أجد من الحرصي على العلم أشد مما كنت أجد له وأنا ابن عشرين، وبلغت لأنتني عشرة سنة، وأنا اليوم لا أرى نقصاً في خاطر والفكر والحفظ، وحده النظر بالعين... كَانَ قَدْ اشْتَعَلَ بِمَذْهَبِ الْمُعْتَرِئَةِ فِي خَدَائِقِهِ عَلَى ابْنِ الْوَلِيدِ، فَأَرَادَ الْحَابِلَةَ قَتْلَهُ، فَاسْتَحَارَ بِبَابِ الْمَرَاتِبِ عِدَّةَ سِنِينَ، ثُمَّ أَظْهَرَ التَّوْبَةَ. علق الذهبي على ميل ابن عقيل نحو المعتزلة (Makdisi, p. 50) في بداية طلبه للعلم وانتقد ذلك وذكر رجوع ابن عقيل لمذهب السلف. ويحق للمعاصرين إنكار التعسف الذي مورس ضد ابن عقيل فذلك لا يليق بالحياة العلمية ولا الإنسانية ولا بمجتهد حر. يقول على وطفة "ما يؤسف له أن التربية الإسلامية السائدة عبر روادها يمارسون تأصيلاً لقيم التعصب الديني وأحياناً الطائفي فيحولون الدين من منهل للتسامح والانفتاح والأنسنة إلى دفع موجج للعناصر التعصبية ضد الإنسان والآخر".

<sup>٢</sup> التخرج (مفصلاً): أحمد في مسنده والبخاري في الأدب عن ابن عباس. تصحيح السيوطي: صحيح وقال الألباني حسن لغيره (انظر: الأدب المفرد للبخاري ص ٩٢، رقم الحديث ٢٤٩).

وَكذلكًا". يقوم المنهج النبوي في التربية على الرفق والسماحة وخاصة مع الأطفال. إن الحلم في تعليم الطفل والضحك معه ومداراته أساس تربيوي في تكون شخصية الناشئة.

ونعثر في سير أعلام النبلاء على فضل الأمهات في أدب الأبناء وإسهاماتهن المشرفة في رفق الحضارة الإسلامية بالنوابع. قال الذهبي "قال العباس بن الوليد: فَمَا رَأَيْتُ أَبِي يَتَعَجَّبُ مِنْ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا، تَعَجَّبُهُ مِنَ الْأَوْزَاعِيِّ، فَكَانَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ، تَفَعَّلَ مَا تَشَاءُ! كَانَ الْأَوْزَاعِيُّ يَتِيمًا فَقِيرًا فِي حَجْرٍ أُمِّهِ، تَنَقَّلَهُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَقَدْ جَرَى حُكْمُكَ فِيهِ أَنْ بَلَغَتْهُ حَيْثُ رَأَيْتَهُ، يَا بُنَيَّ، عَجَزَتِ الْمُلُوكُ أَنْ تُؤَدِّبَ أَنْفُسَهَا وَأَوْلَادَهَا أَدَبَ الْأَوْزَاعِيِّ فِي نَفْسِهِ، مَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً قَطُّ فَاضِلَةً إِلَّا اخْتَجَّ مُسْتَمِعُهَا إِلَى إِبْتَاهَا عَنْهُ... قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: مَاتَ أَبِي وَأَنَا صَغِيرٌ، فَذَهَبْتُ الْعَبُّ مَعَ الْعِلْمَانِ، فَمَرَّ بِنَا فُلَانٌ - وَذَكَرَ شَيْخًا جَلِيلًا مِنَ الْعَرَبِ - فَفَرَّ الصَّبِيَانُ حِينَ رَأَوْهُ، وَتَبْتُ أَنَا، فَقَالَ: ابْنُ مَنْ أَنْتِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ. فَقَالَ: يَا ابْنَ أَحْيَى، يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَاكَ. فَذَهَبَ بِي إِلَى بَيْتِهِ، فَكُنْتُ مَعَهُ حَتَّى بَلَغْتُ، فَأَلْحَقَنِي فِي الدِّيْوَانِ". إن الأم المخلصة تستطيع أن تصنع حياة الأطفال والأبطال وتقوم بتربيتهم تربية حسنة يعجز عن القيام بحققها كثير من الأثرياء والأمرء.

وفي دنيا الأيتام تشرق شمس الأمهات وهن يصنعن النبلاء بكفاحهن. قال الذهبي عن طفولة الشافعي ومات أبوه إدريس، "فَنَشَأَ مُحَمَّدٌ يَتِيمًا فِي حَجْرٍ أُمِّهِ، فَخَافَتْ عَلَيْهِ الصَّيْعَةَ، فَتَحَوَّلَتْ بِهِ إِلَى مَحْتَدِهِ [انتقلت به من بلاد الشام إلى مكة] وَهُوَ ابْنُ عَامِرِينَ، فَنَشَأَ بِمَكَّةَ، وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّمِيِّ، حَتَّى فَاقَ فِيهِ الْأَقْرَانَ، وَصَارَ يُصَيَّبُ مِنْ عَشْرَةِ أَسْهُمٍ تِسْعَةً، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ وَالشَّرْعِ، فَبَرَعَ فِي ذَلِكَ، وَتَقَدَّمَ. ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْفِقْهُ، فَسَادَ أَهْلَ زَمَانِهِ (ج ١٠ ص ٦). إن المبادرة في توجيه مسار الطفل ووضع الأهداف الطموحة بداية المسار الصحيح كما أن العلوم الدينية والرياضة البدنية وعلوم اللغة العربية هي ضرورات لتنشئة الطفل. وقال الشافعي: كُنْتُ يَتِيمًا فِي حَجْرٍ أُمِّي، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مَا تُعْطِينِي لِلْمُعَلِّمِ، وَكَانَ الْمُعَلِّمُ قَدْ رَضِيَ مِنِّي أَنْ أَقُومَ عَلَى الصَّبِيَانِ إِذَا غَابَ، وَأُخَفِّفَ عَنْهُ... كُنْتُ أَكْتُبُ فِي الْأَكْتَابِ وَالْعِظَامِ... كُنْتُ أَقْرَأُ النَّاسَ وَأَنَا ابْنُ ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَنَةٍ، وَحَفِظْتُ (الموطأ) قَبْلَ أَنْ أَحْتَلِمَ (ج ١٠ ص ٥٤). وكذلك كان البخاري يتيمًا وكانت أمه تدعو له بكثرة وتحب له العلم وتضع له الآمال العلمية العظيمة فنشأ في كنف أمه التي كانت تحمل هم تربيته تربية رفيعة وكان لها ذلك. ذكر الذهبي كيف ذهب بصر البخاري وكيف من الله عليه بالشفاء فقال: ذَهَبَتْ عَيْنَا مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ فِي صِعْرِهِ فَرَأَتْ وَالِدَتُهُ فِي الْمَنَامِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ لَهَا: يَا هَذِهِ، قَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَى ابْنِكَ بَصْرَهُ لِكَثْرَةِ دُعَائِكَ فَأُصْبِحْنَا وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بَصْرَهُ (بتصرف). إن العناية بالأيتام من روائع الإسلام ورغم ركود الاقتصاد من حين لآخر نجد الجود يدفع أهل الخير من المحسنين في الديار الإسلامية عبر القرون إلى بناء مدارس لرعاية وتعليم الأيتام بالجمان رغم الظروف الاقتصادية القاسية (الشطبي، ٢٠٠٩م).

لقد أدرك علماءنا أهمية رعاية الطفل وضرورة تعاون أفراد الأسرة في أداء هذه الغاية السامية مع تقديم وتقدير دور الأم في التربية. قال ابن القيم في زاد المعاد "ولما كان النساءُ أعرَفَ بالتربية، وأقدرَ عليها، وأصبرَ وأرأفَ وأفرغَ لها، لذلك قُدمتِ الأم فيها على الأب... فتقدمُ الأم في الحضانة من محاسن الشريعة والاحتياط للأطفال... لكون النساء أقوم بمقاصد الحضانة والتربية من الذكور، فيكون تقديمها لأجل الأنوثة" (ج ٥، ص ٣٩٢، باختصار).

ولقد جمع الذهبي مواقف ابن عباس لا سيما في طفولته وهي ذات مضامين تربوية في غاية الأهمية وفيما يلي مقتطفات منها. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: تُؤَيِّى النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَنَا ابْنُ عَشْرِ. كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ؛ أَنَا مِنَ الْوَالِدَانِ، وَأُمِّي مِنَ النِّسَاءِ. مَسَّحَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَأْسِي، وَدَعَا لِي بِالْحِكْمَةِ. وَعَنْ ذَكَرِيَاتِ الطُّفُولَةِ وَاسْتِعَانَةِ النَّبِيِّ بِهِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُنْتُ أَلْعَبُ مَعَ الْعُلَمَانِ، فَدَعَانِي النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَقَالَ: (ادْعُ لِي مُعَاوِيَةَ). وَكَانَ يَكْتُبُ الْوَحْيَ (ج ٣، ص ١٢٣).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: صَلَّى اللهُ عَلَيَّ وَسَلَّمَ - مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، فَجَعَلَنِي حِدَاءَهُ، فَلَمَّا انصرفت، قُلْتُ: وَيَبْنِي لِأَحَدٍ أَنْ يُصَلِّيَ حِدَاءَكَ وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ؟! فَدَعَا اللهُ أَنْ يَرِيْدَنِي فَهَمًّا وَعِلْمًا. إِنْ قِيَامَ اللَّيْلِ مَدْرَسَةً لِلصَّغَارِ وَالْكِبَارِ يَجِبُ تَعْوِيدُ الطِّفْلِ عَلَيْهَا بِرَفْقٍ وَبِالتَّدرِجِ وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّربيةَ بِالعِبَادَةِ مِنْ أَهْمٍ وَأَرْفَعٍ وَسَائِلِ التَّربيةِ الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تُحْرَصُ دَائِمًا عَلَى إِشْرَاكِ الرَّجُلِ وَزَوْجَتِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ بِمِثْلِ تِلْكَ العِبَادَاتِ ذَاتِ الأَثَرِ العَمِيقِ فِي تَقْوِيمِ الخَلْقِ وَتَطْهِيرِ النَفْسِ. وَيَكشِفُ لَنَا الذَّهَبِي هِمَّةَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَبِذَلِكَ فِي طَلْبِ العِلْمِ وَمِبَادِرَتِهِ فِي اغْتِنَامِ الفُرْصِ وَبِذَلِكَ سَبَقَ أَقْرَانَهُ. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا تُؤَيِّى رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَيَنْهَمُ اليَوْمَ كَثِيرًا. فَقَالَ: وَاعْجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ! أَتَرَى النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْكَ، وَبِى النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مَنْ تَرَى؟ فَتَرَكَ ذَلِكَ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ، فَإِنْ كَانَ لِيَبْلُغُنِي الحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ، فَآتِيهِ وَهُوَ قَائِلٌ، فَأَتَوَسَّدُ رِجَائِي عَلَى بَابِهِ، فَتَسْفِي الرِّيحُ عَلَيَّ التُّرَابَ، فَيَخْرُجُ، فَيَرَانِي، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ! أَلَا أُرْسَلَتَ إِلَيَّ فَآتَيْكَ؟ فَأَقُولُ: أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيكَ، فَأَسْأَلُكَ. قَالَ: فَبَقِيَ الرَّجُلُ حَتَّى رَأَيْتَنِي وَقَدْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيَّ، فَقَالَ: هَذَا الفَتَى أَعْقَلُ مِنِّي.

وعلى ضوء ما سبق سرده فإن الذي يستعرض سيرة ابن عباس وطلبه للعلم في طفولته يظفر بفوائد جمة هي جواهر منشورة في سير أعلام النبلاء لا تقدر بثمن لمن أدرك أهمية قيم التربية الإسلامية ونماذجها التربوية الفذة. إن نسب ابن عباس الرفيع لم يمنعه من النوم عند عتبات باب العلماء بحثًا عن العلم، ومن لم ينتفع بالعلم لن يكون نسبه وحسبه وماله شفيعا له في مجتمع المعرفة والفضيلة. رغم قصر قصة ابن عباس إلا أنها تحتزل الكثير في مطاويها العميقة، ومراميتها التعليمية التي تستوجب الالتفاف الفاحص

لألفاظها بحثاً عن مضامينها التربوية ومقاصدها الرصينة. إن القصة السابقة عن سعي ابن عباس في طلب العلم وبعد نظره ومبادرته في اغتنام الفرص تستحق أن تكون موضع نقاش وحوار للطلاب والطالبات في الفصول المدرسية والمقررات الجامعية لاقتناص الفوائد والبدايع منها.

وبعد ما تعلم ابن عباس تبوأ مكانة كريمة في مجلس الكبار رغم صغر سنه، وأنكر بعضهم جلوسه معهم فكشف لهم عمر بن الخطاب سعة علم ابن عباس وأنه يستحق مجالسة شيوخ الصحابة رضي الله عنهم. نقل الذهبي التالي "كَانَ نَاسٌ مِنَ الْمَهَاجِرِينَ قَدِ وُجِدُوا عَلَى عُمَرَ فِي إِذْنَائِهِ ابْنِ عَبَّاسٍ دُوْنَهُمْ... وَكَانَ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنِّي سَأَرَيْكُمْ الْيَوْمَ مِنْهُ مَا تَعْرِفُونَ فَضَلَّهُ. فَسَأَلَهُمْ عَنْ هَذِهِ السُّورَةِ: { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ } [النَّصْرُ: ١]، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ إِذَا رَأَى النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا أَنْ يَحْمَدَهُ وَيَسْتَغْفِرَهُ. فَقَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، تَكَلَّمْتَ. فَقَالَ: أَعَلِمَهُ مَتَى يَمُوتُ، أَي: فَهِيَ آيَتِكَ مِنَ الْمَوْتِ، فَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ (ج ٣ ص ٣٤٤). إن اختبار الموهوب وإظهار فضله مجتمعيًا وتقديم الامتيازات له وتشجيعه من وسائل التربية القويمة.

وعن ابن عباس، قال: دَعَا بِي عُمَرُ مَعَ الْأَكْبَارِ، وَيَقُولُ لِي: لَا تَتَكَلَّمْ حَتَّى يَتَكَلَّمُوا، ثُمَّ يَسْأَلُنِي، ثُمَّ يُقْبِلُ عَلَيَّ، فَيَقُولُ: مَا مَنَعَكُمْ أَنْ تَأْتُونِي بِمِثْلِ مَا يَأْتِينِي بِهِ هَذَا الْعَلَامُ الَّذِي لَمْ تَسْتَوْ شُؤُونَ رَأْسِهِ. وَعَنْ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: قَالَ الْمَهَاجِرُونَ لِعُمَرَ: أَلَا تَدْعُو أَبْنَاءَنَا كَمَا تَدْعُو ابْنَ عَبَّاسٍ؟ قَالَ: ذَاكُمْ فَتَى الْكُهُولِ؛ إِنَّ لَهُ لِسَانًا سَوُولًا، وَقَلْبًا عَفُولًا (ج ٣، ص ٣٤٥). وَعَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَحْضَرَ فَهْمًا، وَلَا أَلْبُ لُبًّا، وَلَا أَكْثَرَ عِلْمًا، وَلَا أَوْسَعَ حِلْمًا مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، لَقَدْ رَأَيْتُ عُمَرَ يَدْعُوهُ لِلْمُعْضَلَاتِ فَيَقُولُ: قَدْ جَاءَتْ مُعْضَلَةٌ، ثُمَّ لَا يُجَاوِزُ قَوْلَهُ، وَإِنَّ حَوْلَهُ لِأَهْلٍ بَدْرٍ... لَقَدْ أُعْطِيَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَهْمًا، وَلَقْنَا، وَعِلْمًا، مَا كُنْتُ أَرَى عُمَرَ يُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَحَدًا. إن استشارة الطفل النبيه في الأمور التي يفقهها من السنن الحميدة التي تجسد قيمة العلم والثقة الكبيرة بعقلية الناشئة وتدريبهم على الدراية بالأمور الكبرى والمصاعب العظمية. التعليم بالمصاحبة هو الذي جعل السلف يحرصون على المكوث عند العلماء وحبب لطلاب العلم الرحلة إليهم حيث يتعلم الواحد منهم الأدب والعلم في آن واحد. تكشف الفقرة السابقة أن توجيه الأسئلة الوجيهة والتدبر السليم من أسباب تفوق ابن عباس.

كثيرة هي القصص التي تدل على إكرام مقام الطفل إذا ظهرت عليه علامات التفوق. إن الثقة بقدرات الطفل المتميز جعلت السلف يقدمونه ويشجعونه على مخالطة العلماء. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ بَشِيرٍ: أَقَامَنِي بَحْيَى الْقَطَّانُ فِي مَجْلِسِهِ، فَقَالَ: مَا حَدَّثَكُم عَنِّي هَذَا الصَّبِيُّ فَصَدَّقُوهُ، فَإِنَّهُ كَيْسٌ. قُلْتُ: كَانَ ارْتِحَالُ أَبِيهِ بِهِ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَتِسْعِينَ، وَهُوَ نَحْوُ الْمُحْتَلِمِ. قَالَ أَبُو حَامِدٍ بْنُ الشَّرْقِيِّ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ يَقُولُ: احْتَلَمْتُ فَدَعَا أَبِي عَبْدَ الرَّزَّاقِ، وَأَصْحَابَ الْحَدِيثِ الْغُرَبَاءَ فَلَمَّا فَرَعُوا مِنَ الطَّعَامِ قَالَ: اشْهَدُوا أَنَّ ابْنِي قَدْ احْتَلَمَ وَهُوَ ذَا يَسْمَعُ مِنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، وَقَدْ سَمِعَ مِنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ. قُلْتُ: هَذَا الْإِعْلَامُ إِيْلَامٌ لِلصَّبِيِّ، وَنَحْجِيلٌ لَهُ (ج ١٢ ص ٣٤٢). إن تعليق الذهبي في غاية الروعة فمخالطة العلماء ومجالسة

الكبار لا تعني بحال من الأحوال سقوط الكلفة فإن المراهق مرهف الحس يفضل الاحتفاظ بخصوصياته وينفر من الإحراج الذي يسببه له والده أو أقرب الناس إليه. إن التجربة هي التي جعلت الذهبي ينتبه إلى حساسية الناشئة من الخوض أو التلميح بعلامات النضج الجنسي أمام الكبار. ولأن الذهبي محنك في نقل الأخبار فإنه نقلها وعقب عليها تعليقا تربويا موفقا ليقدم لنا درسا مهما وهو أن التعليقات التربوية على أخبار الماضيين مهمة ويجب أن لا تغيب عن ذهن المرابي فليس كل ما فعله وقاله السابقون صواب. وفي سير الأعلام نجد ومضات عن الثواب كأداة من أدوات التهذيب. ولأن المسجد بيت كل مسلم يكشف الفكر التربوي الإسلامي أن العلماء كانوا يحرصون على ترغيب الأطفال بالصلاة في المسجد ويرغبونهم بما يحبونه كي يحدث الاقتران الإيجابي فلقد ذكر الإمام الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء عن زيد بن الحارث وهو من طبقة صغار التابعين أنه كان مؤذّن "مَسْجِدِهِ، فَكَانَ يَقُولُ لِلصَّبِيَّانِ: تَعَالَوْا، فَصَلُّوا، أَهْبْ لَكُمْ جَوْزًا. فَكَانُوا يُصَلُّونَ، ثُمَّ يُحِيطُونَ بِهِ. فَقُلْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: وَمَا عَلَيَّ أَنْ أَشْتَرِي لَكُمْ جَوْزًا بِخَمْسَةِ دَرَاهِمٍ، وَيَتَعَوَّدُونَ الصَّلَاةَ" (ج ٥، ص ٢٩٧). إن الثواب والترغيب من أرقى أنواع التربية لحماية الناشئة وتربيتهم تدريجيا على القيم الإسلامية.

ومن عاداتهم قديما الإسراع في التعلم إذا كان الطفل مستعدا وخاصة تعلم وحفظ ما يتيسر من الذكر الحكيم فهذا ابنُ اللَّبَّانِ التَّمِيمِيُّ كَانَ أَحَدَ أَوْعِيَةِ الْعِلْمِ، ثِقَةً، وَجَيِّزَ الْعِبَارَةِ، مَعَ تَدْبِيرٍ وَعِبَادَةٍ وَوَرَعٍ بَيِّنٍ، بدأ في طلب العلم منذ نعومة أظفاره فهو كما يقول "حَفِظْتُ الْقُرْآنَ وَلِي خَمْسِ سِنِينَ، وَأُحْضِرْتُ بِجَلِيسِ ابْنِ الْمُقَرَّرِيِّ، وَلِي أَرْبَعِ سِنِينَ"<sup>١</sup>. وفي سيرة أبي حنيفة يؤكد الذهبي على أهمية تعلم القرآن الكريم ومخالطة الصبيان فهم بلا ذنوب ويشير إلى فضل التعلم في المسجد وهكذا نجد تراثنا بحث على التزود من القرآن الكريم منذ الصغر مما يُوجد الحس الجمعي الذي يكوّن الوجدان الاجتماعي المشترك ويكون القرآن الكريم بمثابة الجذر والجذع لشجرة التعليم. والحق أن التربية الإسلامية تعطي جميع العلوم والفنون والمعارف دورا كبيرا في صقل الشخصية وتكوين الوعي. قال الشافعي نقلا عن الذهبي: مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، عَظُمَتْ قِيَمَتُهُ، وَمَنْ تَكَلَّمَ فِي الْفِقْهِ، نَمَّا قَدْرُهُ، وَمَنْ كَتَبَ الْحَدِيثَ، قَوِيَتْ حُجَّتُهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي اللُّغَةِ، رَقِيَ طَبَعُهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الْحِسَابِ، جَزُلَ رَأْيُهُ، وَمَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ، لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ. كان الطفل لا سيما في المسجد يتعلم شتى العلوم التي يحصلها فنجد القاعدة الأساسية والمعلومات الدينية في ذهن الطفل في الشرق يشترك فيها مع طفل آخر في الأندلس أو أفريقيا فالتعليم في العالم الإسلامي قديما عامل توحيد وتقريب ثقافي نجح نجاحا باهرا في تعميق الوحدة الإسلامية.

إن قارئ سير أعلام النبلاء يشعر بوجود أرضية متقاربة ومتكاملة وأعراف تعليمية تقدر المؤهلات وتستوعب التنوع. نجح التعليم بدرجة عالية في العصور الماضية في تكوين الشخصية العربية المسلمة في

<sup>١</sup> تحدث العلماء عن جواز إحضار الصبيان مجالس العلم، وقال بعضهم إن سن التمييز ست وقالوا ولا بأس بتعليم الصبي الحديث والقرآن وهو صغير إذا كان فهماً. ومن هديهم قديما أنهم يحضرون الصغار مجالس العلم تدريبا للطفل على التحصيل وليعقل ويضبط الفهم.

طول وعرض البلدان الإسلامية فاللغة العربية كانت عزيزة في واقع الناس، والقرآن الكريم والسنة المطهرة من أركان التعليم، والمسجد يشهد أداء العبادات وعقد مجالس العلم، والمدارس العالية تستقطب الطلبة والقيم النبيلة أكسبت الناشئة عبر القرون وحدة ثقافية. تلك الوحدة جعلت الطفل في بغداد والقاهرة والأندلس أشقاء لهم حرية في التنقل والدراسة ومواصلة التعليم ومزاولة الأعمال في حين أننا اليوم في المنطقة الواحدة نرى اختلافا كبيرا إلى حد التناقض في قوانيننا التعليمية فالجامعة المعترف بها في دولة عربية لا يتم الاعتراف بها في دولة مجاورة وكذلك المدارس للأطفال مما يتطلب إعادة اختبار الطفل المغترب مع أسرته في نهاية كل عام إما في بلده أو في سفارته. وهذه المفارقة تكشف تبعثر الأوضاع التعليمية وغيرها وتدل على عمق التفرق اليوم بين الأشقاء رغم أننا نعيش في عصر المعلومات والعولمة وزوال الكثير من الحدود المانعة للتعاون في كافة المستويات.

كانت مجالس العلم روضة تجمع الجميع وتمدهم بالنافع المفيد. وكان المؤدب يقدم دروسا خاصة. قال الذهبي "كَانَ الْكِسَائِيُّ ذَا مَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ عِنْدَ الرَّشِيدِ، وَأَدَّبَ وَلَدَهُ الْأَمِينَ، وَنَالَ جَاهًا وَأَمْوَالًا". يرى ابن سينا إن وجود الطفل وأقرانه مع المؤدب أدى إلى تجويد التعليم حيث التنافس الحمود فالتعليم الفردي له سلبياته النفسية والتعليم الجمعي له إيجابياته الاجتماعية. لم يكن التعليم الفردي عند المعلم في الغالب ليحجب أبناء العامة من طلب العلم في العصور الإسلامية الزاهرة فالمجتمع المسلم كان قادرا على توفير التعليم الجيد للجميع والدليل نبوغ عدد كبير من الفقراء والأيتام غير العرب والفئات الخاصة ممن يعانون من الإعاقة الجسدية.

نقل الذهبي عن مالك بن أنس: "قَدِمَ الْمُهَدِيُّ الْمَدِينَةَ، فَبَعَثَ إِلَى مَالِكٍ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ لَهُارُونَ وَمُوسَى: اسْمَعَا مِنِّي. فَبَعَثَ إِلَيْهِ، فَلَمْ يُجِبْهُمَا، فَأَعْلَمَا الْمُهَدِيُّ، فَكَلَّمَهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! الْعِلْمُ يُؤْتِي أَهْلَهُ. فَقَالَ: صَدَقَ مَالِكٌ، صَبْرًا إِلَيْهِ. فَلَمَّا صَارَا إِلَيْهِ، قَالَ لَهُ مُؤَدِّبُهُمَا: اقْرَأْ عَلَيْنَا. فَقَالَ: إِنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَفْرُؤُونَ عَلَى الْعَالِمِ، كَمَا يَفْرَأُ الصَّبِيَانُ عَلَى الْمُعَلِّمِ، فَإِذَا أَخْطَرُوا، أَفْتَاهُمْ". هؤلاء هم القدوة والأسوة في توفير العلم الجيد للجميع.

وعلى نفس النهج السالف طلب الأمير أبو مُحَمَّد الموفق من أبي داود أن يَخْصَّصَ لأولاد الخلفاء مجلساً ليعلمهم لأنهم لا يجلسون مع أبناء عامة الناس. كان رد أبي داود: أما هذه فلا سبيل إليها، لأنَّ النَّاسَ فِي الْعِلْمِ سِوَاءَ" (الذهبي، ج ١٣، ص ٢١٦). "النَّاسُ فِي الْعِلْمِ سِوَاءَ" مفهوم طبَّقه وعشقه وعاش له جمع كثير من علمائنا مثل مالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، والبُخَارِيُّ وغيرهم فكان دأبهم وأدبهم في التعلُّيم يدور في دائرة هذا المفهوم. قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ جَابِرٍ: كُنْتُ مَعَ أَبِي دَاوُدَ بِنِعْدَادَ، فَصَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ، فَجَاءَهُ الْأَمِيرُ أَبُو أَحْمَدَ الْمَوْفِقُ -يَعْنِي: وَلِيَّ الْعَهْدِ- فَدَخَلَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ أَبُو دَاوُدَ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِالْأَمِيرِ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ؟ قَالَ: خِلَالُ ثَلَاثٍ. قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: تَنْتَقِلُ إِلَى الْبَصْرَةِ فَتَخِذُهَا وَطَنًا، لِيَرْحَلَ إِلَيْكَ طَلَبَةُ الْعِلْمِ، فَتَعْمُرُ بِكَ، فَإِنَّهَا قَدْ خَرِبَتْ، وَانْفَطَعَ عَنْهَا النَّاسُ، لِمَا جَرَى عَلَيْهَا مِنْ مِحْنَةِ الرَّجْعِ.



فَقَالَ: هَذِهِ وَاحِدَةٌ. قَالَ: وَتَرَوِي لِأَوْلَادِي (السُّنَنِ). قَالَ: نَعَمْ، هَاتِ الثَّالِثَةَ. قَالَ: وَتُفَرِّدُهُمْ مَجْلِسًا، فَإِنَّ أَوْلَادَ الْخُلَفَاءِ لَا يَتَعَدُّونَ مَعَ الْعَامَّةِ. قَالَ: أَمَّا هَذِهِ فَلَا سَبِيلَ إِلَيْهَا، لِأَنَّ النَّاسَ فِي الْعِلْمِ سَوَاءٌ... فَكَانُوا يَخْضُرُونَ وَيَتَعَدُّونَ، وَيَسْمَعُونَ مَعَ الْعَامَّةِ (باختصار).

الموقف السابق له مثيله في حياة البخاري حيث سأله أحد الأمراء أَنْ يَخْضُرَ مَنْزِلَهُ، فيقرأ (الجامع) وَ(التَّارِيخَ) عَلَى أَوْلَادِهِ، فَاْمْتَنَعَ الْبُخَارِيُّ عَنِ الْحُضُورِ عِنْدَهُ، فَرَأَسَلَهُ بِأَنْ يَعْقِدَ مَجْلِسًا لِأَوْلَادِهِ، لَا يَخْضُرُهُ غَيْرُهُمْ، فَاْمْتَنَعَ، وَقَالَ: لَا أَخْصُ أَحَدًا. وتخاصم مع الأمير فنفاه (ج ١٢ ص ٤٦٥). هذه قبسات تربوية ولمسات إنسانية ذكرها الذهبي يتعين علينا تقديمها لكل معلم يريد تنمية نفسه ومعرفة سر عظمة الحضارة الإسلامية. لن يتكون مجتمع المعرفة والفضيلة إلا بتطبيق ونشر التعليم الجيد للجميع وكسر قيود الاحتكار.

هذا مفهوم نبيل لم يُعرف في حياة كثير من الشعوب الأخرى إلا عندما بَلَغَ السَّيْلُ الرُّبِّيُّ وثارَتِ الثَّوَرَاتُ، وطالب الفقراء والنساء والضعفاء بحقوقهم بعدما عرفوا حقيقة "الناس في العلم سواء". مارس المسلمون في فترات تاريخية مبدأ "الناس في العلم سواء" بدرجة عالية وإن كان نصيب الذكور نصيب الأسد حيث تقلصت فرص الإناث في فترات كثيرة.

ومن المنظور الاقتصادي فإن من يسبر غُورَ الكتب التُّراثية يعلم أن الكثير من العُلَمَاءِ - مثل الليث بن سعد وسعد الخير - أنفقوا من كريم أموالهم ولما رجعوا إلى بلادهم بعد الرحلة في طلب العلم بادروا إلى الإنفاق على الطُّلاب. وكان الكثير منهم من طبقة الأثرياء حتى أن بعضهم أنفق معظم ما يملك لأجل طلب العلم. قال الذهبي كان "غالب السُّلف إنما يُنفقون من كسبهم" (ج ١٠، ص ١٢٤). لم تكن الرحلات في طلب العلم في مجموعها محاولات للتزلف للأمراء وغيرهم بل كان هدفها الأسمى السعي في طلب العلم لأن الإسلام يحض الصغار والكبار على طلب العلم. كان العلماء يحركون الشوق في طلابهم ويحثون على السعي والاجتهاد والمثابرة في التحصيل العلمي. نقل الذهبي عن الإسفراييني الفقيه أنه، قَالَ: لَوْ سَافَرَ رَجُلٌ إِلَى الصِّينِ حَتَّى يَحْصُلَ تَفْسِيرَ مُحَمَّدٍ بْنِ جَرِيرٍ لَمْ يَكُنْ كَثِيرًا.

لقد لعب الناشئة دورا عظيما في بناء الحضارة الإسلامية بل كانوا منذ بداية التاريخ الإسلامي صنَّاع مجد الإسلام. والحق أن الصغار كانوا سندا للنبي صلى الله عليه وسلم منذ فجر الإسلام حيث دخل عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ هذا الدين العظيم وهو غلام مراهق بعدما قلب الفكر، وأعمل الفؤاد فكان مع خَدِيجَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَمَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ يَعْبُدُ اللَّهَ بِهَذَا الدِّينِ، إِلَّا هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ (الذهبي: ج ١، ص ٣٤٣). تنافس الصغار للدفاع عن الإسلام ولكن نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم كان يمنعهم من خوض الحروب وهم صغار. عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: عُرِضَتْ يَوْمَ أُحُدٍ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَنَا ابْنُ ثَلَاثِ عَشْرَةَ، فَجَعَلَ أَبِي يَأْخُذُ بِيَدِي، وَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّهُ عَبْلُ [ضحك] الْعِظَامِ. وَجَعَلَ نَبِيُّ اللَّهِ يُصَعَّدُ فِي النَّظَرِ، وَيُصَوِّبُهُ، ثُمَّ قَالَ: (رُدَّهُ). (ج ٣، ص ١٦٩).

وللطفل في السنة النبوية مكانة عظيمة وكلما سنحت الفرصة كان للطفل نصيبه الأوفى في الأحكام الدينية التي يسرت له مصادر كسب الأجر منذ الصغر. ذكر الذهبي أن امرأة رفعت "إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صَبِيًّا لَهَا فِي حِجَّةٍ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلْهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: (نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ). (ج ١٣ ص ٤٥٣). إن الطفل في الحج والصلاة وسائر العبادات يتعلم عمليا ويزاول العبادات ويتعرف بالتدرج على الأحكام الدينية في الفرائض فيتعلمها قبل البلوغ ولهذا يشارك الطفل في الصلاة والصيام على سبيل التمرين وبغرض التعلم، وللأهل الأجر على جهودهم في تحييب الناشئة على اعتياد أداء الفرائض من الصغر وقبل سن التكليف.

### المحور الثاني: أخلاقيات المتعلم

لا ريب أن التربية الخلقية هي أساس الرسالة الإسلامية ولب تربيتها. وكان طلب العلم مرتبط بممارسة الفضائل أو كما نقل الذهبي في ترجمة السلفي "وردّ إِلَى بَعْدَادَ، فَأَقَامَ بِهَا عَامَيْنِ مُكْتَبًا عَلَى الْعِلْمِ وَالْفَضَائِلِ".

نجد في سير أعلام النبلاء فضائل لا تحصر منها فضيلة الوفاء عند المتعلم والمعلم يتوارثها جيل عن الآخر. وفاء العلماء وتقدير بعضهم البعض خُلة أصيلة وحلية راسخة فهذا الثوري يتحدث عن أستاذه قائلا: "عَمَرُو بَنِي قَيْسٍ هُوَ الَّذِي أَدَّبَنِي، عَلَّمَنِي قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ وَالْفَرَائِضَ، وَكُنْتُ أَطْلُبُهُ فِي سُوقِهِ، فَإِنْ لَمْ أَجِدْهُ، فَفِي بَيْتِهِ، إِمَّا يُصَلِّي، أَوْ يَقْرَأُ فِي الْمُصْحَفِ، كَأَنَّهُ يُبَادِرُ أَمْرًا يُفُوتُهُ". إن اغتنام الوقت والصحة والفرغ والشباب من أهم ما يمكن أن يقدمه المعلم ويزينه في ذهن تلميذه. وعلى خطاه قال الشافعي: مَالِكٌ مُعَلِّمِي، وَعَنْهُ أَخَذْتُ الْعِلْمَ. وعن عبد الله بن أحمد [بن حنبل]، قُلْتُ لِأَبِي: أَيُّ رَجُلٍ كَانَ الشَّافِعِيُّ، فَإِنِّي سَمِعْتُكَ تُكْتَبُ مِنَ الدُّعَاءِ لَهُ؟ قَالَ: يَا بُنَيَّ، كَانَ كَالشَّمْسِ لِلدُّنْيَا، وَكَالعَاقِبَةِ لِلنَّاسِ، فَهَلْ لِهَذَيْنِ مِنْ حَلْفٍ، أَوْ مِنْهُمَا عِوَضٌ؟ لم يصل هؤلاء إلى مراحل متقدمة من العلم والفضل إلا بالوفاء الذي كانوا يورثونه لأبنائهم ويعلمونهم فضل الأساتذة كما فعل ابن حنبل مع ابنه. إن الوفاء تواضع أيضا قبل أن يكون اعترافا فالفضل. قَالَ الإسْفَرَايِينِي: أَنَا فِي جَانِبِ شَيْخِنَا أَبِي الْحَسَنِ الْبَاهِلِيِّ كَقَطْرَةٍ فِي بَحْرِ". ومن هنا يكسب الطفل معاني الوفاء قولاً وسلوكاً ناصعاً صادقا يزيد من تلاحم المجتمع وينشر الأمن النفسي في مجتمع العلماء وغيرهم. وهكذا نعلم أنه لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل. لقد وجد الأطفال طريقهم نحو المجد بفضيلة الوفاء. ومن الأهمية بمكان أن ندرك أن العلاقة الحميدة بين المعلم وطلابه من أركان جودة التعليم في كل عصر. إن علاقة الطفل بالمعلم في غاية الأهمية لأنها تحدد نمو الطفل (Education Week, 2009, p. 13) ومستقبله.

ونمضي مع مشوار أخلاقيات المعلم حيث تشير المعلومات الواردة في سير أعلام النبلاء إلى حرص طلاب العلم على تدوين مذكرات الطفولة وروايتها فنجد عالما يروي عن أحد أساتذته "وَحَضَرْتُ بِجَلْسِ وَعَظِهِ وَأَنَا صَغِيرٌ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ". وكان أحد الطلاب يجلسُ لِلسَّمَاعِ وَهُوَ

صَبِيٍّ لَا يَكَادُ يَتَحَرَّكُ، كَأَنَّهُ مِسْمَارٌ (ج ٢٢ ص ١٥٤). وقال أحد المتعلمين عن أستاذه "يَقْرَأُ عَلَيْنَا فِي الْحَرِّ الشَّدِيدِ حِينَئِذٍ". وذكر الذهبي أيضا عن قَتَادَةَ أَنَّهُ طَلَبَ الْعِلْمَ فِي الصَّغَرِ فَقَالَ "وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً، فَمَا شَيْءٌ سَمِعْتُ فِي تِلْكَ السِّنِينَ إِلَّا وَكَأَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي صَدْرِي. وَقَالَ أَحَدُهُمْ سَمِعْتُ مِنْ عَائِشَةَ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ سِنِينَ (ج ٢٠ ص ٨٢)، وَطَلَبَ الْعِلْمَ فِي صِغَرِهِ (ج ١٤ ص ١٢٤). ويقولون: طَلَبَ هَذَا الشَّيْءَ فِي صِغَرِهِ بَعْنَايَةَ وَالِدِهِ (ج ١٧ ص ١٦٣)، اِزْتَحَلَ فِي صِبَاهِهِ (ج ١٨ ص ٣٥٦). وكان بعض العلماء يستكمل تحصيله في مرحلة مبكرة. سَمِعْتُ مُسْلِمَ بْنَ خَالِدِ الرَّحْمِيِّ يَقُولُ لِلشَّافِعِيِّ: أَفَتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فَقَدْ -وَاللَّهِ- آتَى لَكَ أَنْ تُفْتِيَ - وَهُوَ ابْنُ خَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً. ولا شك أن تلك التعبيرات -وغيرها أكثر- تنم عن قيمة الطفل ومدى تعظيم ثقافة المجتمع للعلم وطالبه وتقديره للمشقة التي تصادفه.

والرفقة الصالحة في تحصيل العلوم جعلت كلمة الصديق والرفيق ذات دلالة إنسانية عميقة في تراثنا التربوي. والصدقة الحميمة والمنافسة المحمودة قد تجعل من الطالبين أعز صديقين؛ "الصَّاحِبَانِ، لِكُوْنَهُمَا فِي الْحِفْظِ وَالطَّلَبِ مَعًا كَفَرَسِي رِهَانٍ". إن حب العلم وأهله من صفات النبلاء ولا عجب أن يحرص الذهبي على التعريف بأحد العلماء بأنه يُحِبُّ الْعِلْمَ وَأَهْلَهُ. ونقل الذهبي عن مكارم الأخلاق عند الناشئة:

الصَّوْمُ أَزْيَبُ بِالْفَتَى	مَنْ مَنَاطِقِي فِي غَيْرِ حِينِهِ
وَالصَّوْمُ ذُقْ أَجْمَلُ بِالْفَتَى	فِي الْقَوْلِ عِنْدِي مَنْ يَمِينِهِ
وَعَلَى الْفَتَى بِوَقْفَارِهِ	سَمَةٌ تُلَوِّحُ عَلَى جَبِينِهِ
فَمَنْ أَلْذِي يَخْفَى عَلَيْهِ	لَكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى قَرِينِهِ

لقد كان تقييد العلم أو حفظه وكتابة أسماء العلماء والعلماء ممن أخذ منهم طالب العلم خلقا كريما حرص الذهبي أشد الحرص على تتبعه وتدوينه وتوثيقه بالأسانيد من بداية كتابه إلى نهايته مع ذكر الرحلات العلمية وما صاحبته من غرائب ومعوقات وفوائد كي يحظى الواحد منهم بمراده العلمي.

وإذا بحثنا في أهم مقومات النجاح وبداية السير والسعي نجد النية الصالحة أهم ركن في بناء الإنسان المسلم. من طلب العلم مخلصا لله ينكسر الكبر في نفسه فيتواضع ويدرك حقيقة نفسه ويصلح عمله ومن فعل غير ذلك خسر أو كما قال الذهبي "فَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِلْعَمَلِ كَسَرَهُ الْعِلْمُ، وَبَكَى عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِلْمَدَارِسِ وَالْإِفْتَاءِ وَالْفَخْرِ وَالرِّيَاءِ، تَحَامَقَ، وَاحْتَالَ، وَازْدَرَى بِالنَّاسِ، وَأَهْلَكَهُ الْعُجْبُ". ومن علامات الإخلاص أن المتعلم "يُقْصِرُ مِنَ الدَّعَاوَى وَحُبِّ الْمِنَاطِرَةِ، وَمَنْ قَصَدَ التَّكْثُرَ بِعِلْمِهِ، وَيُزْرِي عَلَى نَفْسِهِ، فَإِنْ تَكَثَّرَ بِعِلْمِهِ، أَوْ قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ مِنْ فُلَانٍ، فَبُعْدًا لَهُ".

وإذا كان شرح التراث بالتراث نفسه من خير الطرق لفهم الموروث، فإن من روائع الأدب التربوي وصية الإمام أحمد بن حنبل لولده فهي وصية من أكمل وأجمل الوصايا إذ قال عبدالله لأبيه يَوْمًا أَوْصِنِي

يَا أَبَتِ، فَقَالَ "يَا بُيِّ انُو الْحَيْرِ فَإِنَّكَ لَا تَزَالُ بِحَيْرٍ مَا نَوَيْتَ الْحَيْرَ". وَهَذِهِ وَصِيَّةٌ عَظِيمَةٌ سَهْلَةٌ عَلَى الْمَسْئُولِ، سَهْلَةٌ الْفَهْمِ وَالْإِمْتِنَالِ عَلَى السَّائِلِ، وَفَاعِلُهَا تَوَابُهُ دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ لِدَوَامِهَا وَاسْتِمْرَارِهَا، وَهِيَ صَادِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ الْمَطْلُوبَةِ شَرْحًا سَوَاءً تَعَلَّقَتْ بِالْحَالِقِ أَوْ بِالْمَخْلُوقِ (المقدسي، بدون تاريخ). النية الصالحة تهبنا همة طموحة وتدعنا نضاعف الجهد نحو وضع خطط مستقبلية طموحة وتظل

النية الحسنة راحة قلبية لفتح آفاق جديدة ومشاريع مفيدة نستشرف منها ما هو قادم من الزمن. يتفرع من الإخلاص خلال عظمة وأخلاق فاضلة من أجلها التواضع. وذكر الذهبي "مَا صَدَقَ اللَّهُ عَبْدٌ أَحَبَّ الشُّهْرَةَ... عَلَامَةُ الْمُخْلِصِ الَّذِي قَدْ يُحِبُّ شُهْرَةً، وَلَا يَشْعُرُ بِهَا، أَنَّهُ إِذَا عُوتِبَ فِي ذَلِكَ، لَا يَجْرُدُ [لا يغضب] وَلَا يُرَى نَفْسَهُ، بَلْ يَعْتَرِفُ، وَيَقُولُ: رَحِمَ اللَّهُ مَنْ أهدَى إِلَيَّ عِيُوبِي، وَلَا يَكُنْ مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ؛ لَا يَشْعُرُ بِعِيُوبِهَا، بَلْ لَا يَشْعُرُ أَنَّهُ لَا يَشْعُرُ، فَإِنَّ هَذَا دَاءٌ مُزْمَنٌ". إن قبول النقد دليل الرقي والنبيل. قال الذهبي عن أحمد البغدادي أن أبوه حاضه "عَلَى السَّمَاعِ وَالْفَقْهِ، فَسَمِعَ وَهُوَ ابْنُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً"، وعندما صار عالما كان متواضعا "وَيَنْزِلُ إِلَى أَنْ يَكْتُبَ عَنْ عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ الْمَأْمُونِ... بَلْ نَزَلَ إِلَى أَنْ رَوَى عَنْ تَلَامِيذِهِ... وَهَذَا شَأْنٌ كُلِّ حَافِظٍ يَرْوِي عَنِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ". وهذا تعليق لطيف من الذهبي يدل على فقهه التربوي ومن المعلوم في علم الحديث أن هناك روايات كثيرة من الكبار عن الصغار، ومن الآباء عن الأبناء وهذا فرع تعليمي رفيع توارثه المسلمون عبر القرون.

والإخلاص سفينة النجاة في بداية طلب العلم ومدى الحياة. قال الذهبي "كَانَ السَّلَفُ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ لِلَّهِ، فَبُتِلُوا، وَصَارُوا أَيْمَةً يُقْتَدَى بِهِمْ، وَطَلَبُهُ قَوْمٌ مِنْهُمْ أَوْلَى لَآ لِلَّهِ، وَحَصَلَتْهُ، ثُمَّ اسْتَفَافُوا، وَحَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ، فَجَرَّهُمُ الْعِلْمُ إِلَى الْإِخْلَاصِ فِي أَتْنَاءِ الطَّرِيقِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعَيْرُهُ: طَلَبْنَا هَذَا الْعِلْمَ، وَمَا لَنَا فِيهِ كِبِيرٌ بِنِيَّةٍ، ثُمَّ رَزَقَ اللَّهُ النَّيَّةَ بَعْدُ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: طَلَبْنَا هَذَا الْعِلْمَ لِعَيْرِ اللَّهِ، فَأَبَى أَنْ يَكُونَ إِلَّا لِلَّهِ... ثُمَّ نَشَرُوهُ بِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ. وَقَوْمٌ طَلَبُوهُ بِنِيَّةٍ فَاسِدَةٍ لِأَجْلِ الدُّنْيَا، وَلِيُثْنَى عَلَيْهِمْ، فَالَهُمْ مَا نَوَوْا... وَتَرَى هَذَا الضَّرْبَ [النوع من العلماء] لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَا هُمْ وَقَعَ فِي النُّفُوسِ، وَلَا لِعِلْمِهِمْ كِبِيرٌ نَتِيحَةٌ مِنَ الْعَمَلِ، وَإِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ يَخْشَى اللَّهَ -تَعَالَى-. وَقَوْمٌ نَالُوا الْعِلْمَ، وَوَلُّوا بِهِ الْمَنَاصِبَ، فَظَلَمُوا، وَتَرَكُوا التَّقْيِيدَ بِالْعِلْمِ، وَرَكِبُوا الْكِبَائِرَ وَالْفَوَاحِشَ، فَتَبَّأَ هُمْ، فَمَا هَؤُلَاءِ بِعُلَمَاءَ!".

نقل الذهبي عن طفولة الغزالي أنه قال مَاتَ أَبِي، وَخَلَّفَ لِي وَلِأَخِي مِقْدَارًا يَسِيرًا [من المال] فَقَبِي بِحَيْثُ تَعَدَّرَ عَلَيْنَا الْقُوتُ، فَصَرْنَا إِلَى مَدْرَسَةِ نَطْلُبُ الْفِقْهَ، لَيْسَ الْمَرَادُ سِوَى تَحْصِيلِ الْقُوتِ، فَكَانَ تَعَلُّمَنَا لِذَلِكَ، لَا لِلَّهِ، فَأَبَى أَنْ يَكُونَ إِلَّا لِلَّهِ (ج ١٩ ص ٣٣٥، باختصار).

ولقد أوضح الذهبي صفات الطالب النجيب فقال "الْأَمَانَةُ جُزْءٌ مِنَ الدِّينِ، وَالضُّبْطُ دَاخِلٌ فِي الْحِدْقِ، فَالَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْحَافِظُ أَنْ يَكُونَ تَقِيًّا ذَكِيًّا، نَحْوِيًّا لِعَوِيًّا زَكِيًّا، حَيِيًّا، سَلْفِيًّا، يَكْفِيهِ أَنْ يَكْتُبَ بِيَدِهِ مَائِيًّا مُجَلَّدًا، وَيُحْصِلَ مِنَ الدَّوَابِّينِ الْمُعْتَبَرَةِ خَمْسَ مِائَةٍ مُجَلَّدًا، وَأَنْ لَا يَقْتَرِ مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَى الْمِمَاتِ، بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ وَتَوَاضِعٍ، وَإِلَّا فَلَا يَتَعَنَّ" من الواضح أن الذهبي عدّد صفات في غاية الجودة ولا يصل إليها

أو يطمح بها إلا أهل الهمم العالية من المتعلمين. ورأس الأخلاق الصدق وهذه الصفة هي الأكثر تكرارا في سير أعلام النبلاء حيث كرر الذهبي كلمة "صدوق" مئات المرات (٤٣٤ مرة تقريبا)؛ صدوق، كان مُعلِّماً بالكُوفَةِ. إن النبلاء لا ينالون مرادهم إلا بإخلاص النية، وصدق الحديث، وأداء الأمانة.

وتمتد جذور شجرة الأخلاق لتجمع العقل والعبادة. نقل الذهبي "قَالَ الشَّعْبِيُّ: إِنَّمَا كَانَ يَطْلُبُ هَذَا الْعِلْمَ مَنْ اجْتَمَعَتْ فِيهِ خَصَلَتَانِ: الْعَقْلُ وَالنُّسْكُ<sup>١</sup>، فَإِنْ كَانَ عَاقِلًا، وَمَ يَكُنْ نَاسِكًا، قَالَ: هَذَا أَمْرٌ لَا يَنَالُهُ إِلَّا النَّسَاكُ، فَلَنْ أَطْلُبُهُ. وَإِنْ كَانَ نَاسِكًا، وَمَ يَكُنْ عَاقِلًا، قَالَ: هَذَا أَمْرٌ لَا يَنَالُهُ إِلَّا الْعُقَلَاءُ، فَلَنْ أَطْلُبُهُ. يَقُولُ الشَّعْبِيُّ: فَلَقَدْ رَهَبْتُ أَنْ يَكُونَ يَطْلُبُهُ الْيَوْمَ مِنْ لَيْسَ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا، لَا عَقْلَ وَلَا نُسْكَ. قُلْتُ: أَظْنُهُ أَرَادَ بِالْعَقْلِ الْفَهْمَ وَالذِّكَاةَ".

والتراث الناصع هو الذي يُعلي من شأن المرأة كعالمة ومتعلمة فلقد كان الصالحون لا يستنكفون من التعلم من النساء وكانوا على سبيل المثال يوجهون طلابهم للتعلم من عمرة بنت عبد الرحمن الأنصاريَّة، النَّجَّارِيَّة تلميذة السيدة عائشة رضي الله عنها. قال الذهبي "عَنِ ابْنِ شَهَابٍ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ: أَنَّهُ قَالَ لِي: يَا غُلَامُ، أَرَاكَ تَحْرِصُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، أَفَلَا أُدْلِكَ عَلَى وَعَائِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: عَلَيْكَ بِعَمْرَةَ، فَإِنَّهَا كَانَتْ فِي حَجْرِ عَائِشَةَ. قَالَ: فَاتَّبَيْتُهَا، فَوَجَدْتُهَا بَحْرًا لَا يُنْزَفُ (ج ٤ ص ٥٠٨). وقال السلفي "الواعظَةُ أُرْوَى بِنْتُ مُحَمَّدٍ هِيَ ابْنَةُ عَمِّ جَدَّتِي فَاطِمَةَ الشَّعْبِيَّةِ مَقْدَمَةَ الْوَاعِظَاتِ، رَأَيْتُهَا وَحَضَرْتُ عِنْدَهَا كَثِيرًا". وفي ترجمة السلفي ينقل الذهبي التالي "وَسَمِعَ مِنَ النِّسَاءِ بِأَصْبَهَانَ، مِنْ أُمَّ سَعْدٍ أَسْمَاءَ بِنْتُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ ... وَمِنْ أَمَةِ الْعَزِيزِ بِنْتُ مُحَمَّدِ بْنِ الْجُنَيْدِ - سَمِعَتِ الْجَمَالَ - وَمِنْ سَارَةَ أُخْتِ شَيْخِهِ أَبِي طَالِبِ الْكُنْدَلَابِيِّ، وَفَاطِمَةَ بِنْتُ مَاجِهَ ... وَمِنْ لَامِعَةَ بِنْتُ سَعِيدِ الْبَقَالِ ... لَمْ يَسْمَعْ بِعَدَادٍ مِنَ النِّسَاءِ سِوَى ثَمَانِي شَيْخَاتٍ". وهكذا منذ القرن الهجري الأول كانت المرأة شقيقة الرجل في طريق العلم ورحلة الحياة تعشى المساجد وتحضر مجالس العلم وتتعلم من الرجال وتعلمهم ثم انتكس الأمر وتقلص لاحقا.

وفي هذا السياق كانت نفوس الصغار والكبار شغوفة بالرحلة في طلب العلم ولكن الإسلام جعل موافقة الأهل شرطا لذلك. قال الذهبي كَانَ الْأَبَارُ مِنْ أَزْهَدِ النَّاسِ، اسْتَأْذَنَ أُمَّهُ فِي الرَّحْلَةِ إِلَى فُتَيْبَةَ، فَلَمْ تَأْذَنْ لَهُ، ثُمَّ مَاتَتْ، فَخَرَجَ إِلَى خُرَاسَانَ، ثُمَّ وَصَلَ إِلَى بَلْخٍ وَقَدْ مَاتَ فُتَيْبَةَ، فَكَانُوا يُعْزُونَهُ عَلَى هَذَا، فَقَالَ: هَذَا ثَمْرَةُ الْعِلْمِ، إِنِّي اخْتَرْتُ رِضَى الْوَالِدَةِ (ج ١٣ ص ٤٤٣). والذهبي هو نفسه خير مثال لطاعة الوالد قبل السفر في طلب العلم فإن التماسك الأسري ركن ركين في تعاليم الدين ومسائل التربية مرتبطة بمنظومة القيم الإسلامية التي تضبط الحياة. ولا يعني هذا أن التراث لا يحكي لنا عن حالات عقوق

<sup>١</sup> "عاش في نُسْكَ": في زُهْدٍ وَتَعَبُدٍ.

الوالدين بل ثمة حوادث في غاية الغرابة ذكرها الذهبي (انظر الطَّحَّان، أَبُو بَكْرٍ وأيضاً ترجمة باديس بن حَبُوس) فالحياة البشرية للأسف لا تخلو من التناقض والتعارض والتعسف.

ولقد لعبت القراءة والتعلم والتعليم دوراً عظيماً في تكوين شخصية الناشئة حتى أصبحوا سادة وقادة. نقل الذهبي عن ابن زُشَيْدِ الحَنْفِيْدِ<sup>١</sup>، أنه " لَمْ يَنْشَأْ بِالْأَنْدَلُسِ مِثْلَهُ كَمَالاً وَعِلْماً وَفَضْلاً، وَكَانَ مُتَوَاضِعاً، مَنْحَفِضَ الْجَنَاحِ، يُقَالُ عَنْهُ: إِنَّهُ مَا تَرَكَ الْإِشْتِعَالَ [التعلم والتعليم] مَذْ عَقَلَ سِوَى لَيْتَيْنِ: لَيْلَةَ مَوْتِ أَبِيهِ، وَلَيْلَةَ عَرْسِهِ، وَإِنَّهُ سَوَّدَ فِي مَا أَلْفَ وَقَيْدَ نَحْواً مِنْ عَشْرَةِ آلَافٍ وَرَقَّةً، وَمَالَ إِلَى عُلُومِ الْحُكَمَاءِ، فَكَانَتْ لَهُ فِيهَا الْإِمَامَةُ، وَكَانَ يُفْرَعُ إِلَى فُتْيَاهُ فِي الطَّبِّ، كَمَا يُفْرَعُ إِلَى فُتْيَاهُ فِي الْفِقْهِ، مَعَ وَفُورِ الْعَرَبِيَّةِ". إن الاطلاع على الكتب من مكونات الأخلاق الحسنة بل من أهم مستلزماتها ومن أعظم دعائمها فالعلم يقود إلى العز والمجد.

من أهم ما يمكن استنباطه من سير أعلام النبلاء فيما يتعلق بأخلاقيات المتعلم قوة الإرادة لاسيما عند طالب العلم في بداية الطلب. قوة الإرادة والإصرار على تحقيق المطالب العالية سمة عند جميع النبلاء. تبدأ نقطة الانطلاق في رحلة تهذيب السلوك وتنقية الأخلاق من أعماق الطفل عبر تنمية قوة الإرادة لديه بالتدرج عبر تدريسه على أداء العبادات والافتداء بالنبلاء وإحياء الفضائل العقلية والروحية والاجتماعية وغيرها. هذه رحلة تربية لا تنتهي فهي مستمرة لا تعرف الاستقرار أو التهاون فالإنسان مطالب دائماً بمجاهدة نفسه، ومجاهدة عثراته فالإنسان كثير العثر. لا تتحقق الإرادة إلا باستثمار طاقات الإنسان بلا حدود وإلا يغشاها خطر الجمود. إن قوة الأرقام في أخلاقهم وسر نهضتهم الإرادة القوية فهي قوة ظاهرة باهرة وكما قال الزهاوي:

وليس من قوة في الكونِ قاهرةٌ تستطيع أن تقعدَ الأرقامَ إن نهضوا

### المحور الثالث: تعامل المربي مع الطفل

إن من الوفاء لأمتنا أن نخلد ذكر أعلامنا من السابقين واللاحقين " وننشر على الدنيا عبر سيرهم، ليقنتدي الأحفاد بالأجداد، ويستقروا التاريخ لاستعادة بناء الأجداد" (الشيخ، ١٩٩٤م، ص ٥٣٨). من الوصايا الأصيلة للمشتغل بصناعة التعليم أن يستثمر سير النبلاء ولهذا قيل " وعلمهم سير الحكماء" (ابن حمدون، بدون تاريخ)، وقيل " وأشغلهم بسير الحكماء". طوبى المسلم بأن يسلك سبيل الصالحين والمحسنين على بصيرة. قال جل ثناؤه "أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ" (الأنعام: ٩٠). والافتداء بهم يكون فيما نبغوا فيه وأحسنوا عمله من نافع

<sup>١</sup> من المؤلف حقا في تاريخنا أن ابن رشد " مات محبوباً بداره بمراكش" كما ذكر الذهبي وهكذا انتهت حياة شيخ الإسلام ابن تيمية بموقف عدائي وكذلك ذاق مرارة الظلم من الحكام وغيرهم أئمة الفقه الأربعة حيث ضربوا وعوقبوا.

العمل. إن إيجاد القدوة الصالحة من أعظم مسؤوليات التربية إزاء تربية الأبناء كي يسلكوا سبيل الخير ويكونوا من أهل الاعتبار. كرر الذهبي كلمة القدوة نحو (٣٣١) مرة في مقام المدح أثناء التعريف بالأعلام في سيره مما يدل على أهميتها في تنشئة جيل قويم.

وفي ضوء ما سبق، يؤكد الكثير من المتخصصين في التربية الإسلامية على أهمية العناية بالإنتاج العلمي في موضوع "الخطاب التربوي الموجه للطفل في التراث التربوي الإسلامي" بهدف الاستفادة منه في خدمة القضايا التربوية المعاصرة (النقيب، ٢٠٠٤م، ص ٥٢٤، ٧٤، ٨٩). إن تربية "الأطفال هي المسألة الأساسية في حياة الأمة، فمن لا يكثر لها لا يكثر للأمة كلها" (رضا، بدون تاريخ، ج ٢، ص ١٥١). ترك المسلمون القدماء تراثاً زاخراً يتصل بالطفل ومصالحه (الأشقر، ٢٠٠٩م، ص ٤٨) ومن الضرورة بمكان توظيف نفائس التراث في بناء القدوة الجاذبة للعلم والعمل والأخلاق. يتعين على المعلم الإطلاع على نماذج من تلك المؤلفات التراثية كي يطلع على مضامينها التربوية ويزيد إحساسه وارتباطه بمحاسن تراثه. إن منهج الذهبي في تقديم التراجم منهج عملي يمكن تبسيطه وتطويره وتزويده بالرسومات والوسائل الحديثة كي يتناسب الموروث مع عقل الطفل وتشرق في سمائه نجوم يقتدي ويهتدي بصالح علمها وعظيم خلقها.

يقدم الذهبي جملة مواقف ذهبية في تربية الناشئة منها أن رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يُصَلِّي، فَإِذَا سَجَدَ، وَتَبَّ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَى ظَهْرِهِ، أَوْ عَلَى عُنُقِهِ، فَيَرْفَعُهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَفْعاً رَفِيقاً لئَلَّا يُصْرَعَ، فَعَلَّ ذَلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ، فَلَمَّا فَضَى صَلَاتَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَأَيْنَاكَ صَنَعْتَ بِالْحَسَنِ شَيْئاً مَا رَأَيْنَاكَ صَنَعْتَهُ بِأَحَدٍ. قَالَ: إِنَّهُ رِيحَانِي مِنَ الدُّنْيَا، وَإِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يُصَلِّحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (ج ١٣ ص ١٩١). الرفق بالطفل ومراعاة حاله ومصالحه حتى في الصلاة يدل على أن الرحمة التي هيمنت على التربية الإسلامية تجعل من الصغار رسل خير وسلم وتآلف.

وامتداداً للسياق السابق يشير الذهبي في موضع آخر إلى قول أحدهم في وصف طريقة الموفق ابن قدامة<sup>١</sup> مع تلاميذه وأولاده. كَانَ الْمُؤَفَّقُ لَا يُنَاطِرُ أَحَدًا إِلَّا وَهُوَ يَتَبَسَّمُ... وَكَانَ لَا يَكَادُ يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا أَحَبَّهُ... وَمَا عَلِمْتُ أَنَّهُ أَوْجَعَ قَلْبَ طَالِبٍ، مَا رَأَيْتُ أَكْثَرَ احْتِمَالًا مِنْهُ... كَانَ حَسَنَ الْأَخْلَاقِ، لَا يَكَادُ يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا مُتَبَسِّمًا، يَحْكِي الْحِكَايَاتِ، وَيَمْرُخُ... كَانَ الشَّيْخُ فِي الْقِرَاءَةِ يُمَارِخُنَا، وَيَبْسِطُ، وَكَلَّمُوهُ مَرَّةً فِي صَبِيَانٍ يَشْتَعْلُونَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: هُمْ صَبِيَانٌ، وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنَ اللَّعِبِ، وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ مِثْلَهُمْ (ج ٢٢ ص ١٧٠، ١٧١ باختصار). الفقرة السابقة تتضمن أركان التعامل السليم مع الطفل؛ توفير الحب والحنان،

<sup>١</sup> قال الذهبي: ابْنُ قُدَامَةَ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُقَدِّسِيِّ. هَاجَرَ مَعَ أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَقَارِبِهِ، وَلَهُ عَشْرُ سِنِينَ، وَحَفِظَ الْقُرْآنَ، وَلَزِمَ الْاِسْتِعَالَ مِنْ صِغَرِهِ، وَكَتَبَ الْخَطَّ الْمَلِيحَ، وَكَانَ مِنْ مُجَوِّزِ الْعِلْمِ، وَأَدْكِيَاءِ الْعَالَمِ.

عدم جرح وجدان الطفل، الصبر، الاستعانة بالابتسامة دائماً، رواية الحكايات، الاستعانة باللعب والمرح والمزاح، حُسن الأخلاق، التدريس، الواقعية. إن الفقرة السابقة لابن قدامة ثرية يحتاج طلبة كليات التربية إلى دراستها، والتعليق عليها، والاستنباط منها لما تحتوي عليه من دقائق التربية القويمة في التعامل مع الطفل.

ولو ألقينا الضوء على آداب العالم والمتعلم في التراث الإسلامي نجد فئة من العلماء - من هؤلاء: أبوبكر العبدى وعلي بن عباس - يختارون الحدائق والبساتين كمؤسسة للتعليم والدرس استناداً إلى المعلومات الثمينة التي يقدمها الذهبي في سيره (الهنيدي، ٢٠٠٢م، ص ٢٣١). نقل الذهبي عن أحد المعلمين أنه كان يعلم "تَحْتَ شَجَرَةٍ يَقْرَأُ" لطلابه. كما كان بعض العلماء يجمع طلابه في بعض أماكن التنزه مسرورين حاملين ما أمكنهم من الشواء والحلوى والطيبات (ابن جماعة، ص ٨٢).

ومن صفات المعلم الجيد أن يشجع التلميذ ويغتنم الفرص لمزاولة ذلك. كَانَ الْبَحَارِيُّ يَخْتَلِفُ [يذهب] إِلَى شَيْخِهِ وَهُوَ صَغِيرٌ، فَسَمِعَتْ أَبَا حَفْصٍ يَقُولُ: هَذَا شَابٌّ كَيْسٌ، أَرْجُو أَنْ يَكُونَ لَهُ صِيْتٌ وَدِكْرٌ (ج ١٢ ص ٤٢٥). وكذلك شجع مالك الشافعي ووجه نحو النافع لمستقبله وأتمته. ويقول أحد الطلاب عن معلمه "وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ فَتَحَ فَمِي بِالْعِلْمِ، لِأَنَّ أُمَّيَ أَسْلَمْتَنِي إِلَيْهِ وَبِي عَشْرَ سِنِينَ، فَكُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ وَالْفِقْهَ وَالنَّحْوَ (ج ٢٢ ص ٨٨). ويمتد التشجيع من المدرسة إلى أرجاء المجتمع كله. دَخَلَ الْمُأْمُونُ دِيوَانَ الْحَرَاجِ، فَرَأَى غُلَامًا جَمِيلًا، عَلَى أُذُنِهِ قَلَمٌ، فَأَعْجَبَهُ جَمَالُهُ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: النَّاشِئُ فِي دَوْلَتِكَ، وَحَرِيْبُجُ أَدَبِكَ، وَالْمَتَّقَلْبُ فِي نِعْمَتِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، حَسَنُ بْنُ رَجَاءٍ. فَقَالَ: يَا غُلَامُ! بِالْإِحْسَانِ فِي الْبَدِيهَةِ تَفَاضَلَتِ الْعُقُولُ. ثُمَّ أَمَرَ بِرَفْعِ رُتْبَتِهِ، وَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ أَلْفٍ (ج ١٠ ص ٢٨٠).

ونجد في سير أعلام النبلاء أهمية الحفظ كقول أحدهم لابنه "يَا بُنَيَّ! احْفَظْ" وقال غيره "أَوَّلُ الْعِلْمِ الْاسْتِمَاعُ، وَالْإِنْصَاتُ، ثُمَّ حِفْظُهُ، ثُمَّ الْعَمَلُ بِهِ، ثُمَّ بُنْيَانُهُ" (الذهبي، ج ٨، ص ١٧٥-١٧٦). إن فنون الاستماع بداية التلقي وهي غاية في الأهمية للطفل. ولعل طبيعة الحياة سابقا وحفظا للسنة النبوية اتجهت التربية الإسلامية إلى ترسيخ مبدأ التلقين منذ الصغر بل كانت مرتبة الحافظ عظمة الشأن جليلة القدر. خلافا لما هو شائع عند المستشرقين فإن حفظ القرآن الكريم والمتون من الفنون التربوية النافعة إذا استخدمت بطريقة صحيحة علما بأن الحفظ بداية مطاف - لا نهاية مطاف - ووسيلة للفهم والتدبر لاحقا. وفوق ذلك فحفظ ما تيسر من القرآن الكريم وسيلة لتهديب أخلاق الطفل منذ مرحلة مبكرة (Kadi, 2007, 16, Boyle, 2007, p. 186, Boyle, 2004). حفظ المتون وصولاً لترسيخ الفنون ظاهرة تتجلى في كل كتب التراث في تربية الطفل.

<sup>١</sup> يقول الغزالي "من سمع تيقظ، ومن تيقظ تذكّر، ومن تذكّر تفكّر، ومن تفكّر علم، ومن علم عمل إن كان علما يراد به للعمل، وإن كان علما يراد لذاته سعد والسعادة غاية المطلب" (روضة الطالبين وعمدة السالكين، ص ٧٧). وقال "مفتاح السعادة التيقظ".



ولا شك أن التركيز على الحفظ وإهمال سواه خطره كبير. قال سعيد إسماعيل علي في كتابه *الخطاب التربوي الإسلامي* "ولسنا في حاجة إلى التأكيد على ما أحرزه البحث العلمي في مجالات متنوعة من صور من التقدم إلى درجة تحطم معها عديد من الأفكار التي سبق أن تصور بعضهم قديماً ضرورتها التربوية، ومن ثم فعندما ننتقي ونختار من تراثنا التربوي يجب أن نزاعي عدم تعارضه مع ما كشف عنه العلم الحديث. وعلى سبيل المثال فكم من كتابات أنفق فيها علماءنا وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً، اهتماماً منهم «بالحفظ»، بحكم العديد من العوامل التي كانت قائمة قبل اختراع الطباعة، بينما لا نجد في عصرنا الحاضر ضرورة في الاستعانة كثيراً بمثل هذه الجهود إلا في بعض المجالات التي ما تزال بحاجة إلى الحفظ. إن التقنية المعاصرة أصبحت تحمل عن الإنسان عناء الحفظ وتقوم بتخزين أضعاف ما يستطيع الإنسان أن يحتزنه في ذاكرته" (بتصرف).

وعلى المرابي أن يحبب الناشئة في العلوم كلها ولا يقلل من شأن علم من العلوم. نقل الذهبي عن الشافعي "لَا أَعْلَمُ عِلْمًا بَعْدَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، أَنْبَلُ مِنَ الطَّبِّ، إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ عَلَبُونَا عَلَيْهِ. كَانَ الشَّافِعِيُّ يَتَلَهَّفُ عَلَى مَا ضَيَّعَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الطَّبِّ، وَيَقُولُ: ضَيَّعُوا ثُلُثَ الْعِلْمِ، وَوَكَلُوهُ إِلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى" (باختصار). واليوم فإن الحاجة للعلوم التطبيقية والتقنية في البلاد العربية حاجة ماسة ودور المرابي البصير هو غرس حب العلم في نفوس الناشئة من الجنسين. ولئن كان عالم النبلاء يفيض بالفقهاء فالأمة اليوم وهي تشد استئناف مسيرتها الحضارية تحتاج إلى أن تفتح آفاق العلوم بتنوعها والتكنولوجيا والإعلام والعلوم الإنسانية والفنون وتعمير الأرض. إن تعمير الحياة وعبادة الله وجهان لعملة واحدة. أطفالنا السلم الأول لذلك والتحفيز وشحن المهتم نحو حب العلوم والفنون والآداب هي التهمة لسلسلة أعلام النبلاء من الجنسين لإتمام مسيرة الرازي وابن سينا وابن رشد.

تتضمن كتب الذهبي على مجموعة مبادئ تربوية مثل وجوب التعليم، والإخلاص في طلب العلم، والعمل بالعلم (النحلاوي، ١٩٨٩م، ج ٤، ص ٣٢)، وهذه المبادئ هي مبادئ التربية الإسلامية يتعين توظيفها في الواقع والتنقيب عن تطبيقاتها التراثية لتحفيز المعلمين وتوجيه الناشئة والحفاظ على الهوية ومجازاة العصر.

نتعلم من سير أعلام النبلاء توقير العلماء وتقدير جهودهم فيتعلم الطفل الاعتدال في كل حال فيدرس سيرة أي عالم وفق ميزان الوسطية "فَلَا نَغْلُو فِيهِ، وَلَا نَجْفُو عَنْهُ" على حد تعبير الذهبي. لقد أصَّل الذهبي القاعدة السابقة في كتابه *زغل العلم* "اعلم أن في كل طائفة من علماء هذه الأمة ما يذم ويعاب فتحببه". إن الكلمات السابقة هي عبارة رحلة مع آلاف التراجم التي سبر الذهبي غورها في أكثر من نصف قرن فهو يقرر ما عاينه ويكتب ما عايشه عبر تجارب الحياة والاعتبار بصحيح الأخبار.

ومن أوجب واجبات المعلم في تربية الأطفال تعظيم العلم وربطه بالسرور وإظهار الفرح فإن ذلك الأمر من معالم طريق التعلم وكما ذكر الذهبي عن *فَارُوقِ الحُطَّايِّ*، قَالَ: لَمَّا فَرَعْنَا مِنَ السُّنَنِ عَلَى

الْكَحِّيِّ، عَمِلَ لَنَا مَأْدُبَةً، أَنْفَقَ عَلَيْهَا أَلْفَ دِينَارٍ، وَقَدْ مَدَحَ الْكَحِّيَّ أَبُو عُبَادَةَ الْبُحْثَرِيُّ فَأَجَازَهُ بِمَالٍ. وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمَّا حَدَّثَ، تَصَدَّقَ بِعَشْرَةِ آلَافٍ دِرْهَمٍ شُكْرًا لِلَّهِ.

إن الكثير من المواقف صراحة أو ضمناً تشير إلى توثيق العلاقات الاجتماعية بين المجتمع التربوي مبنوثة في تراثنا والعلم اليوم يؤكد كحقائق يجب الاعتناء بها لما فيها من نفع وافر. ثمة لفتات تربوية من دنيا الأطفال وعالم التربية عموماً مبنوثة في سير أعلام النبلاء تزود المرء بالبصيرة وفيما يلي إشارة لطائفة من لطائف الحكم تدل على منهج السلف الصالح في حث الناشئة على الفضائل بكافة صورها العلمية والعملية:

١. "كَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ يُؤَدِّنُ بِمَكَّةَ إِلَى أَنْ تُؤَيَّ... فَبَقِيَ الْأَذَانُ فِي وَوَلَدِهِ وَوَلَدِهِ إِلَى الْيَوْمِ بِمَكَّةَ".
٢. عَنْ سُفْيَانَ، قَالَ: يَنْتَعِرُ الْعُلَامُ لِسَبِّعٍ، وَيَخْتَلِمُ بَعْدَ سَبِّعٍ، ثُمَّ يَنْتَهِي طَوْلُهُ بَعْدَ سَبِّعٍ، ثُمَّ يَتَكَامَلُ عَقْلُهُ بَعْدَ سَبِّعٍ، ثُمَّ هِيَ التَّجَارِبُ (ج ٧ ص ٢٧٠). (يشعر: الانغار: سقوط سن الصبي ونباتها، يقال إذا سقطت روضع الصبي قيل: ثغر فهو مثغور، فإذا نبتت بعد السقوط قيل أنغر).
٣. "وَأَفْضَلُ الذِّكْرِ مَا يَتَعَدَّى إِلَى الْعِبَادِ، وَهُوَ تَعْلِيمُ الْعِلْمِ وَالسُّنَّةِ".
٤. الْعِلْمُ وَسَيْلَةٌ إِلَى كُلِّ فَضِيلَةٍ. قال الشافعي: الْعَالِمُ يَسْأَلُ عَمَّا يَعْلَمُ وَعَمَّا لَا يَعْلَمُ، فَيَتَبَّهَتْ مَا يَعْلَمُ، وَيَتَعَلَّمُ مَا لَا يَعْلَمُ، وَالْجَاهِلُ يَعْضَبُ مِنَ التَّعَلُّمِ، وَيَأْتِفُ مِنَ التَّعْلِيمِ. وقال عمرو بن عثمان: الْعِلْمُ قَائِدٌ.
٥. عرف السابقون خطورة زواج الأقارب في إضعاف ذكاء النسل فقالوا "أَيُّمَا أَهْلٍ بَيْتٍ لَمْ يَخْرُجْ نِسَاؤُهُمْ إِلَى رِجَالٍ غَيْرِهِمْ، وَرِجَالُهُمْ إِلَى نِسَاءٍ غَيْرِهِمْ، إِلَّا وَكَانَ فِي أَوْلَادِهِمْ حُمُقٌ".
٦. رَبُّ مَيِّتٍ قَدْ صَارَ بِالْعِلْمِ حَيًّا\* وَمُبْتَقَى قَدْ حَارَ جَهْلًا وَعَيًّا  
فَأَقْتَنُوا الْعِلْمَ كِي تَنَالُوا خُلُودًا\* لَا تَعُدُّو الْحَيَاةَ فِي الْجَهْلِ شَيْئًا

#### المحور الرابع: التعامل الواعي مع غرائب التراث

إن الغرائب والقصص الواهية قد تدل أحياناً على واقعية الناقل وصدق الأحداث فالمؤلف ينقل ما يحصل عليه ويظفر به. ومن المحال أن نعثر على كتاب لا يعتربه الوهن والاضطراب فالعمل البشري معرض للتناقض والتعارض مهما بلغ من النضج وتحري الدقة. ينقل الراوي أو المؤلف ثقافة المجتمع الذي تسري فيه أحياناً أحاديث موهومة وقصص مزعومة أو عادات غريبة ومواقف شاذة لكنها كانت دارجة قديماً يتناقلها العامة. وأبعد من ذلك فإن القصص التي يجزم العلماء بصحتها ليست بالضرورة تدل على أقوم الطرق في تربية الطفل فقد تكون واقعة محددة ذات ملابس خاصة ومن الخطأ تعميمها. ومن دقة الذهبي في مؤلفاته أنه غالباً يورد القصص التي فيها مبالغت بصيغة التمرريض؛ يُقَالُ (ج ٢٠ ص ٣٦٧).

تعاني كثير من كتب التراث من تضخيم الكرامات والقصاص الخارقة لتدل على صلاح بعض العلماء منذ طفولتهم ومعظمها لا تخلو من الأكاذيب. قال الذهبي "لَيْسَ فِي كِبَارِ الْمَشَائِخِ مَنْ لَهُ أَحْوَالٌ وَكَرَامَاتٌ أَكْثَرُ مِنَ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ، لَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهَا لَا يَصِحُّ، وَفِي بَعْضِ ذَلِكَ أَشْيَاءٌ مُسْتَحِيلَةٌ". إن مفهوم السعي والبذل والعطاء هو أساس التربية القويمة ولا شك أن البركة والفضل يهبها المولى سبحانه لعباده متى يشاء والمطلوب منا السعي الحثيث وتطبيق السنن في العمل وعدم التواكل.

ليس من الحكمة نقل عبارات السلف دون النظر إلى واقعنا بل النقل الواعي يتطلب تحري متطلباتنا التنموية. عن أهمية مؤسسات التربية نقل الذهبي عن الحكيم الترمذي أنه قال: صَلَاحُ خَمْسَةٍ فِي خَمْسَةِ: صَلَاحُ الصَّيِّ فِي الْمَكْتَبِ، وَصَلَاحُ الْفَتَى فِي الْعِلْمِ، وَصَلَاحُ الْكَهْلِ فِي الْمَسْجِدِ، وَصَلَاحُ الْمَرْأَةِ فِي الْبَيْتِ، وَصَلَاحُ الْمُؤَدِّي فِي السَّجْنِ". لا شك أن الكهل يتعبد في محراب المسجد والمجلس والمجتمع وكذلك البيت مملكة المرأة والرجل والطفل كل في مجاله. والصلاح لا يقتصر على هذه الأماكن فقط بل هناك أماكن ووسائط تربوية في غاية الأهمية ولعل العبارة السابقة تشير لأهمها وأكثرها تأثيراً أما إذا قُصد منها ارتحان المرأة في البيت وحجبها من التواجد في مؤسسات المجتمع - كما كان الشائع قديماً- فإن المعنى قاصر<sup>1</sup>. العبادات ذات الصبغة المجتمعية في غاية الأهمية. إن المجتمع محراب للتعبد "إن الذي أعطاه الله تعالى فقها في الدين، وهداه سبل الرشاد وطريق النجاة يدرك أن المجتمع كله - سواء أكان إنسانياً عاماً أم كان مجتمعاً إسلامياً خاصاً- يعتبر فرصة طيبة، ومجالاً واسعاً لعبادة الله تعالى والتقرب إليه بخير الأعمال، وأفضلها" (أيوب، ٢٠٠٢م، ص ١٧٢) للرجل والمرأة وهو ما يتعين ترغيب الأطفال فيه وتدريبهم عليه من أجل التنمية الشاملة والتطوير الموزون. وفي هذا المساق نقل الذهبي عن الشافعي أنه قال "طَلَبُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ النَّافِلَةِ". إن ذلك التفصيل الكريم عند علمائنا في التفاضل بين النوافل في حال التعارض يدل على سعة علمهم، وكمال عقولهم، وقوة منطقتهم، وسلامة منهجهم. إن ترجيح كفة الأعمال التي هي ألصق بمقاصد الشريعة، ويصل نفعها لأكثر عدد من الناس، من علامات عظمة الإسلام وسمو إنسانيته حيث يوازن بين متطلبات الفرد وما يتصل بمصالحه من جهة وبين تطلعات المجتمع من جهة أخرى.

نبح الذهبي غالباً في تطبيق منهج أهل الحديث النبوي الشريف في تشريح النص ونقده سندا ومنتنا وهي مهارة تسعفنا في بناء منهج معاصر للنقد الثقافي. حكى في سير أعلام النبلاء عن أحد المعلمين أنه وُلِدَتْ لَهُ بِنْتُ، فَلَمَّا كَبُرَتْ أَقْرَأَهَا بِالسَّبْعِ [قراءات القرآن الكريم]، وَقَرَأَتْ عَلَيْهِ "الصَّحِيحَيْنِ [صحيح

<sup>1</sup> قال الذهبي (٢٠٠٤م) في كتابه الكباير قالت "فاطمة رضي الله عنها إن خير ما للمرأة أن لا ترى الرجال ولا يروها. فإن اضطرت للخروج لزيارة والديها وأقاربها ولأجل حمام ونحوه مما لا بد لها منه فلتخرج بإذن زوجها غير متبرجة، في ملحفة وسخة في ثياب بيتها وتغض طرفها في مشيتها وتنظر إلى الأرض لا يمينا ولا شمالاً فإن لم تفعل ذلك كانت عاصية" (ص ٢٠٤م). هذه تربية سلطوية قهرية لا تصلح للأنتى بل هي من أسباب تردي مكانة المرأة.

البخاري ومسلم] "وَعَبَّرَ ذَلِكَ، وَكَتَبَتِ الْكَثِيرَ، وَتَعَلَّمَتْ عَلَيْهِ كَثِيرًا مِنَ الْعِلْمِ، وَلمَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا قَطُّ... كَانَ فِي أَوَّلِ الْعُمُرِ اتَّفَاقًا، لِأَنَّهُ كَانَ يَشْتَغِلُ بِالْإِقْرَاءِ إِلَى الْمَغْرِبِ، ثُمَّ يَدْخُلُ بَيْتَهُ وَهِيَ فِي مَهْدِهَا، وَتَمَادَى الْحَالُ إِلَى أَنْ كَبُرَتْ، فَصَارَتْ عَادَةً، وَرَوَّجَهَا، وَدَخَلَتْ بَيْتَهَا وَالْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ، وَلمَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا قَطُّ." قال الذهبي معلقا على هذه العادة الجائرة "قُلْتُ: لا مَدَحَ فِي مِثْلِ هَذَا، بَلِ السُّنَّةُ بِخِلَافِهِ، فَقَدْ كَانَ سَيِّدَ الْبَشَرِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْمِلُ أُمَامَةً<sup>١</sup> بِنْتِ ابْنَتِهِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ". بعض النساء يسترن وجوههن عن أزواجهن ببرقعهن داخل منزل الزوجية إلى اليوم وهذا يحدث فعلا أحيانا (الحشر، ٢٠٠٧م، ص ١١).

تلك العادات الجائرة وغيرها لا تتسق مع روح التربية الإسلامية بل الحياة الإنسانية وقد يتشبث المتشددون بنصوص لا تثبت لنشر تشددهم فيحجبون اسم المرأة ويتهربون من التصريح باسمها وهذا ظاهر على نطاق واسع إلى اليوم في بعض المجتمعات العربية. ومن حين لآخر نسمع عن تلك العادات الشاذة فنذكر أن انحراف الفكر فيه إتلاف للفطرة. ومن هنا ندرك أن التربية الإسلامية هي تربية رفيق ورحمة ونقد لكل ما يخالف هذا المنهج الأصيل القائم على حفظ دعائم الإنسانية والسماحة.

وبخلاف القصة السابقة نجد محامد التراث تنشر فكر الاعتدال حيث وجدت الأنثى عناية وترحيب من جيل الصحابة رضي الله عنهم حيث كانت أم الدرداء يتيمة في حجر أبي الدرداء، تختلف معه في بزئس [البزئس كل ثوب رأسه منه ملتزق به]، تُصَلِّي فِي صُفُوفِ الرِّجَالِ، وَتَجْلِسُ فِي حِلَقِ الشُّرَاءِ، تَعْلَمُ الْقُرْآنَ، حَتَّى قَالَ لَهَا أَبُو الدَّرْدَاءِ يَوْمًا: الْحَقِي بِصُفُوفِ النِّسَاءِ. وذلك بعد أن كبرت. وهكذا وضع الذهبي قيمة العلم وأهميته من خلال عرض سيرة من ترجم لهم (محبوب، ٢٠٠٧م، ص ١٧٨). إن فكر التشدد لا يقارع إلا بنشر فكر التوسط والاعتدال لا سيما في وسط الناشئة ومآثر التراث تسعف في أداء ذلك الواجب.

ومن القصص التي لا يستقيم معناها التربوي اليوم قصة الذهبي عن عبد الرحمن بن أبي حاتم "كُنَّا بِمَصْرَ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ، لَمْ نَأْكُلْ فِيهَا مَرْقَةً، كُلُّ نَهَارِنَا مُقْسَمٌ لِمَجَالِسِ الشُّيُوخِ، وَبِاللَّيْلِ: النَّسْخُ وَالْمَقَابَلَةُ. قَالَ: فَأَتَيْنَا يَوْمًا أَنَا وَرَفِيقٌ لِي شَيْخًا، فَقَالُوا: هُوَ عَلِيْلٌ، فَرَأَيْنَا فِي طَرِيقِنَا سَمَكَةً أَعْجَبْتَنَا، فَاشْتَرَيْنَاهُ، فَلَمَّا صِرْنَا إِلَى الْبَيْتِ، حَضَرَ وَقْتُ مَجْلِسِ، فَلَمْ يَمَكْنَا إِصْلَاحَهُ، وَمَضَيْنَا إِلَى الْمَجْلِسِ، فَلَمْ نَزَلْ حَتَّى أَتَى عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَكَادَ أَنْ يَتَعَيَّرَ، فَأَكَلْنَاهُ نَيْثًا، لَمْ يَكُنْ لَنَا فَرَاغٌ أَنْ نُعْطِيَهُ مَنْ يَشْوِيهِ... لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجَسَدِ." مثل هذه القصص تدل بوضوح على أهمية الكدح في طلب العلم لكن من المهم أن نؤكد دائما على أن تنظيم الوقت والحصول على قسط مناسب من النوم المريح والغذاء المتكامل الصحي وراحة

<sup>١</sup> "قال الذهبي أُمَامَةٌ بِنْتُ أَبِي الْعَاصِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَحْمِلُهَا فِي صَلَاتِهِ هِيَ بِنْتُ بَنِيهِ [زينب]، تَزُوجُ بِهَا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ، وَبَقِيَتْ عِنْدَهُ مُدَّةً، وَجَاءَتْهُ الْأَوْلَادُ مِنْهَا. وَعَاشَتْ بَعْدَهُ، حَتَّى تَزُوجَ بِهَا الْمُعَيَّرُ بْنُ نَوْفَلٍ... فَتُوفِّيَتْ عِنْدَهُ بَعْدَ أَنْ وَلَدَتْ لَهُ يَحْيَى بْنَ الْمُعَيَّرِ. مَاتَتْ فِي دَوْلَةِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، وَلَمْ تَرَوْ شَيْئًا" (باختصار).

الذهن والبدن من دواعي التفوق ومن أهم ما يعين الإنسان على الانجاز كعالم ومتعلم وعامل ولا ريب أن الاعتدال في كل الأمور أصل أصيل.

ومن الحكايات التي تحتاج إلى غريزة تلك القصة التي رواها الذهبي: أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بَكَى وَهُوَ غُلَامٌ صَغِيرٌ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ أُمُّهُ، وَقَالَتْ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: ذَكَرْتُ الْمَوْتَ. قَالَ: وَكَانَ يَوْمَئِذٍ قَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ، فَبَكَتْ أُمُّهُ حِينَ بَلَغَهَا ذَلِكَ (ج ٥، ص ١١٦). وضع أحد الباحثين عنواناً لهذه الحكاية: بكى الغلام عندما تذكر الموت فلم تهون أمه الأمر وتجببه في الدنيا كعادة بعض الأمهات" (الشعبي، ١٤١٣ هـ، ج ٢، ص ٧٢). تروى القصة السابقة في مناسبات كثيرة وخاصة للناشئة وللأمهات ولا تخلو القصة من مضامين قد تدفع البعض إلى معاني غير محمودة وفعلاً هناك من يتوسع في شرح عذاب القبر والنار للأطفال في المدارس لدرجة مخيفة يتعين منعها. ولا شك أن التربية الإيمانية مهمة للجميع وهذا لا يعني تخويف الطفل وإرهابه فالقصص التراثية وغيرها لا تؤخذ بحرفيتها بل بمقاصدها كما أن تعمير الأرض والاستمتاع بمباهج الحياة فكرة يتعين علينا أن لا نغفل عنها في طريقنا نحو الآخرة. والترهيب وسيلة تربية لها ضوابطها وليس كل موقف من الماضي يصلح للرواية اليوم وبنفس اللفظ والقصد.

وثمة قصص وعبارات مليئة بالعبء ولكنها قد تقود القارئ لمضامين تربية قلقه وضيقه ومظلمة فلا بد للمربي من أن يتوخى الحذر في التعامل معها. قال بعض العلماء كما نقل الذهبي "حفظتُ الْقُرْآنَ وَأَنَا ابْنُ سَبْعٍ، وَمَا مِنْ عِلْمٍ إِلَّا وَقَدْ نَظَرْتُ فِيهِ ... وَمَا أَعْلَمُ أَيَّ ضَيِّعْتُ سَاعَةً مِنْ عُمْرِي فِي هُوٍ أَوْ لَعِبٍ" (ج ٢٠ ص ٢٦). إن أمثال تلك المفاهيم تلغي - بغير قصد - أهمية اللعب في حياة الأطفال ولا شك أن انطلاق الطفل للعب في أحضان الطبيعة وقضاء ساعات من المرح والمرح والتسابق تروح نفسه وتكسب الكثير من المعاني الاجتماعية فالألعاب لها وظائف تعليمية ونفسية غاية في الأهمية وقد تحمي الطفل بل والكبير من انتكاسات نفسية لاحقاً. ومن المعلوم أن التربية الإسلامية حضت على ترويح النفس وطالبت بإدخال السرور على قلوب الناس بطرائق شتى.

ومن القصص التي قد يتحفظ عليها المربي لما لها من دلالات متنوعة قد لا تتسق مع الرؤية التعليمية ما ورد من أَنَّ الْأَعْمَشَ كَانَ لَهُ وَلَدٌ مُغْفَلٌ، فَقَالَ لَهُ: اذْهَبْ، فَاشْتَرِ لَنَا حَبْلًا لِلْعَسِيلِ. فَقَالَ: يَا أَبَتِي! طَوَّلُ كَمِّ؟ قَالَ: عَشْرَةٌ أَذْرَعٍ. قَالَ: فِي عَرْضِ كَمِّ؟ قَالَ: فِي عَرْضِ مُصَيَّبِي فَيْكَ (ج ٦ ص ٢٣٩). قد تروى هذه الحكايات كطرائف ولكن لها محذوراتها. وروى الذهبي أَنَّ عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنَ مَرْوَانَ بَعَثَ ابْنَهُ عُمَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ يَتَأَدَّبُ بِهَا، وَكَتَبَ إِلَى صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ يَتَعَاهَدُهُ، وَكَانَ يُلْزِمُهُ الصَّلَاةَ، فَأَبْطَأَ يَوْمًا عَنِ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: مَا حَبَسَكَ؟ قَالَ: كَانَتْ مُرَجَّلِي [الماشطة] تُسَكِّنُ شَعْرِي. فَقَالَ: بَلِّغْ مِنْ تَسْكِينِ شَعْرِكَ أَنْ تُؤَثِّرَهُ عَلَى الصَّلَاةِ. وَكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَى وَالِدِهِ، فَبَعَثَ عَبْدَ الْعَزِيزِ رَسُولًا إِلَيْهِ، فَمَا كَلَّمَهُ حَتَّى حَلَقَ شَعْرَهُ (ج ٥ ص ١١٦). وأن معاوية كان وهو غلاماً يمشي مع أمه هندي، فعنر، فقالت: فم، لا رفعك الله. وأعرابي ينظر، فقال: لم تقولين له؟ فوالله إني لأظنه سيسود قومه. قالت: لا رفعه إن لم يسد إلا

قَوْمُهُ (ج ٣، ص ١٢١). فهذه القصص وأمثالها تعكس الطموح العالي ولكنها في مجملها قد تحتاج إلى قراءات ومقاربات قبل الاستشهاد بها على إطلاقها. الهمة العالية مطلوبة والدعاء الصالح خير كله ونحن نحب أطفالنا حبا غير مشروط ببلوغ القمم فهم القدر الذي قدره الله سبحانه لنا، وطرائق تشجيعهم بالرفق أرحب أفقا وحسبهم أنهم يبدلون الأسباب والله هو الوهاب. وثمة عبارات قلقة أو قد تُفهم بصورة خاطئة تصادف القارئ في كتاب سير أعلام النبلاء وكتب التراث من الأهمية بمكان التأييد في الاستشهاد بها وتناولها بالنقد المعرفي البناء ومن ذلك ما يلي:

١. قَالَ أَبُو مَعْمَرٍ: نَظَرْتُ رَابِعَةً إِلَى رِيَّاحٍ [بْنُ عَمْرٍو] يَضُمُّ صَبِيًّا مِنْ أَهْلِهِ وَيُقَبِّلُهُ. فَقَالَتْ: أَتُحِبُّهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ فِي قَلْبِكَ مَوْضِعًا فَارِغًا لِمَحَبَّةِ غَيْرِهِ، تَبَارَكَ اسْمُهُ. فَعُشِّي عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، وَقَالَ: رَحْمَةٌ مِنْهُ - تَعَالَى - أَلْقَاهَا فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ لِلْأَطْفَالِ... سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ يَقُولُ: لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ مَنْزِلَةَ الصِّدِّيقِينَ حَتَّى يَتْرَكَ زَوْجَتَهُ كَأَنَّهَا أَرْمَلَةٌ، وَيَأْوِي إِلَى مَزَابِلِ الْكِلَابِ (ج ٨ ص ١٧٤). هل هذا هو الزهد؟! إن إنكار مثل هذه الأخبار أمانة علمية إزاء التراث.

٢. قال الشافعي: مَا جَاءَنِي خَيْرٌ قَطُّ مِنْ أَشَقَرٍ... أَحَدَرِ الْأَعْوَرِ، وَالْأَعْرَجِ، وَالْأَخْوَلِ، وَالْأَشَقَرِ، وَالْكَوَسَجِ [الذي لا شعر على عارضيه والناقص الأسنان]، وَكُلُّ نَاقِصِ الْخَلْقِ، فَإِنَّهُ صَاحِبُ التَّوَّاءِ، وَمُعَامَلَتُهُ عَسِيرَةٌ.

٣. قال أحد الطلاب عن معلمه "فَضَرَبَنِي بِدِرَّةٍ مِثْلِ دِرَّةِ الْمُعَلِّمِينَ سَبْعَ عَشْرَةَ دِرَّةً، فَوَقَفْتُ أَبْكِي. فَقَالَ لِي: مَا يُبْكِيكَ؟ أَوْجَعْتِكَ هَذِهِ الدَّرَّةُ؟ ... زِدْ مِنَ الضَّرْبِ، وَزِدْ فِي الْحَدِيثِ [علمي]".

٤. قَالَ أَبُو عَمَرَ الدَّمَشَقِيُّ: سَمِعْتُ ابْنَ الْجَلَاءِ يَقُولُ: قُلْتُ لِأَبُو يَ: أَحِبُّ أَنْ تَهَبَانِي لِلَّهِ. قَالَ: قَدْ فَعَلْنَا. فَعَبْتُ عَنْهُمْ مُدَّةً، ثُمَّ جِئْتُ فَدَقَقْتُ الْبَابَ، فَقَالَ أَبِي: مِنْ ذَا؟ قُلْتُ: وَلِذَلِكَ. قَالَ: قَدْ كَانَ لِي وَلَدٌ وَهَبَنَاهُ لِلَّهِ. وَمَا فَتَحَ لِي (ج ١٤ ص ٢٥٢).

٥. "يُنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يُكْرِهَ وَلَدَهُ عَلَى الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْهُ" (ج ٧ ص ٢٧٣).

كثيرة هي القصص التي لها ملابساتها ومبرراتها سابقا ولكن ليس من الحكمة إقحامها في تربيتنا المعاصرة من دون تنقيح، فأفة النقل التسليم المطلق بصحة ما سبق. ومن الأهمية بمكان أن لا يتحمس المعلم ولا ينجرف برواية القصص دون بيان صحتها متنا واسنادا ولقد كان الذهبي موفقا إلى حد كبير في تقديم الحكايات التي يشك بها فيعرضها بصيغة التضعيف مثل قوله: قيل وحكي وزوي أو أنه غالبا يتعقب القصة بعد رواياتها بنقدها. سرد الذهبي قصة طفولة ربيعة بن أبي عبد الرحمن في طلبه للعلم ودور والدته في صنع تفوقه والمبلغ الكبير الذي أنفقته في سبيل ذلك لكن الذهبي علق القصة في نهاية القصة

بالتالي: قُلْتُ: لَوْ صَحَّ ذَلِكَ، لَكَانَ يَكْفِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ فِي السَّبْعِ وَالْعِشْرِينَ سَنَةً، بَلْ نَصْفُهَا، فَهَذِهِ مُجَازَةٌ بَعِيدَةٌ (ج ٦ ص ٩٤).

## أبرز النتائج

١. لم يخصص الذهبي حيزا معلوما للكتابة عن تربية الطفل بالتفصيل بل جاءت منقولاته عن هذا الموضوع متفرقة ضمن تضاعيف كتابه فهي معالجة متفرقة غير شاملة.
٢. منهج الذهبي عموما تكثيف نقل الآثار، وتخفيف الشرح عليها، لذا لا يعلق على كثير من القصص والآثار مما يفتح المجال اليوم لتقديم القراءات الملائمة، والتمهيد لها، وشرح الغامض من الكلمات غير الدارجة وتناول بعضها بالنقد.
٣. أفضل منهج لتربية الطفل ذلك المنهج الذي يعمق مبدأ الرفق ويقوم على دعائم الرحمة والمودة والملاطفة وعدم الإيذاء من جهة، ويستبعد العقاب البدني والشدة والغلظة من جهة أخرى.
٤. الإخلاص أهم أصول التربية الإسلامية، والعلم النافع يهدي للإخلاص وهو مسلك النبلاء وبه أصبحوا علماء. لقد حاسبوا أنفسهم فانتبهوا، وانتقدوا تقصيرهم فتفوقوا. النبلاء هم الذي عرفوا درهم جيدا نحو إخلاص النية، وامتلكوا إرادة قوية، وعندهم صدق الحديث، وقاموا بأداء الأمانة.
٥. القرآن الكريم بمثابة الجذر والجذع لشجرة التعليم في تهذيب الطفل المسلم.
٦. رسَّخ السلف الصالح أصول التربية الإسلامية قولا وعملا واعتقادا فطبقوا إلى حد كبير أهم مبادئ التكافل الاجتماعي والعدل السياسي؛ مبدأ المساواة وكان شعارهم حقا وصدقا وعدلا: "النَّاسُ فِي الْعِلْمِ سَوَاءٌ" فلا يحصل الغني نصيبا من التعليم أكبر من الفقير، ولا مجال لمجاملة الأمراء ولا سبيل لمداينة الوجهاء فالتعليم الجيد حق للجميع ومنذ طفولتهم الباكرة.
٧. كان علماءنا يحرصون على ترغيب الأطفال بالصَّلَاة في المسجد ويرغبونهم بما يحبونه من الأطعمة اللذيذة والمدح الصادق والقُدوة الحسنة ودروس العلم النافعة في الأماكن المناسبة كي يحدث الاقتران الإيجابي.
٨. قصص أئمة العلم من مثل ابن عباس، وأنس بن مالك، والأوزاعي، والشافعي من أروع القصص المرتبطة بالطفولة والتي تحث على التعلم والتخلق بالأخلاق الحميدة.
٩. إن السماح للأطفال النجباء في حضور بعض مجالس العلم ممارسة تربوية جيدة لتدريب الناشئة على توسيع مداركهم وتطوير مواهبهم. كان الصحابة رضوان الله عليهم يستفيدون من بعض آراء الصغار في مجالسهم بل وفي العضلات يُستفاد من آرائهم فالعلم يرفع من قدر الصغار ولا يستنكف الكبار من الإفادة منهم.
١٠. الرحلة في طلب العلم من وسائل تربية الطفل في التراث الإسلامي.

١١. تعامل المربي مع الطفل يقوم على دعائم أساسية تضمن التعامل السليم؛ توفير الحب والحنان، عدم جرح وجدان الطفل، الصبر، الاستعانة بالابتسامة دائما، رواية الحكايات، استخدام اللعب والمرح والمزاح، التدريس، الواقعية، التحفيز، والبذل والعطاء.
١٢. لعبت الأم خاصة والمرأة عموما عبر التاريخ الإسلامي دورا متميزا فأوصلت الأبناء والبنات إلى المجد وأدرك المجتمع المسلم المطالب العالية.
١٣. العناية بالأيتام من روائع الإسلام.
١٤. انتقاء النصوص التربوية من تراثنا التربوي يجب أن نزاعي فيه صحة الأسانيد ودقة المتون وسلامتها من التناقض وعدم تعارضها مع ما هو مقرر من معطيات تربوية معاصرة. ليس كل ما ورد عن الصالحين صحيح، وليس كل صحيح صريح، وليس كل صريح نقبله دون فهم المقاصد العامة للدين بل لا بد من إعمال العقل وكد الخاطر وموازنة الأخبار وغرلة الغرائب والاستفادة من مناهج النقد القديمة والحديثة في العلوم الإنسانية وغيرها.
١٥. القدوة والدعاء والترويح عن النفس من وسائل التربية الراسخة للتأسيس الإيماني والفكري والحسدي في تراثنا التربوي كي يكون الطفل عضوا نافعا في أسرته ومجتمعه.
١٦. إن كتب سير العلماء تقدم نبذة واقعية عن الحركة العلمية النشطة في المجتمع المسلم الذي يُعلي من شأن العلم ولا يدخر وسعا في طلبه وفق القيم الأخلاقية الضابطة لعلاقة المعلم بالمتعلم.

### التوصيات

١. إنتاج نماذج ووسائل تعليمية تساعد المربي في توضيح مفاهيم التراث.
٢. تضمين المناهج المدرسية بطائفة من لطائف التراث الإسلامي يتم انتقاؤها وتوظيفها مع مراعاة المبادئ التربوية الحديثة.
٣. تشجيع الأبناء والبنات على زيارة المتاحف والمؤسسات المعنية بالتراث الإسلامي والإنساني.
٤. قيام الجامعات والكليات بالدراسات والبحوث حول موضوع ثقافة الطفل في التراث الإسلامي ووضع قواعد تربوية لتناول التراث بموضوعية وبما يخدم المتطلبات العصرية.
٥. عقد ندوات ومحاضرات وورش عمل حول موضوع تربية الطفل في التراث التربوي الإسلامي وكيفية الاستفادة منه للوالدين والمعلمين.
٦. دعوة المختصين من الباحثين والفنانين سواء في مجال القصة والمسرح والموسيقى لدراسة أفضل الأساليب لاستثمار نفائس التراث وتوظيفها التوظيف السليم لرفع الوعي التربوي وتنمية الإحساس بالهوية العربية الإسلامية.
٧. الاعتناء بتوفير قواميس عصرية للمصطلحات التراثية التربوية تخاطب عقل الأطفال وتبعث فيهم الفخر بمحاسن تراثهم.



## أهم المراجع العربية

- ابن الجوزي، عبدالرحمن (١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م). تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر. تحقيق وتعليق: محمد ناصر العجمي. ط ١، بيروت: دار البشائر الإسلامية.
- ابن جماعة، بدر الدين محمد (بدون تاريخ). تذكرة السامع والمتعلم في أدب العالم والمتعلم. مكة: مكتبة دار الباز.
- ابن حمدون (بدون تاريخ). التذكرة الحمدونية. بيروت: دار صادر.
- ابن عربي، محيي الدين (٢٠١٠م). الفتوحات المكية.
- أبو العينين، علي خليل مصطفى (٢٠٠٢م). منهجية التعامل مع التراث التربوي الإسلامي: طبيعته، محدداته، تقويمه. مجلة المسلم المعاصر. المجلد ٢٧، العدد ١٠٥.
- أبو سليمان، عبد الحميد (١٤٢٢ هـ = ٢٠٠٢ م). العلاقة بين المنهجية والأداء التربوي في الفكر الإسلامي. جريدة الشرق الأوسط.
- أبو سليمان، عبد الحميد (١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م). أزمة الإرادة في الوجدان المسلم: البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة في إصلاح الثقافة والتربية: رؤية إسلامية معاصرة. ط ١، دمشق: دار الفكر ومؤسسة تنمية الطفولة.
- الأرناؤوط، محمود (٢٠٠٤م). الذهبي. الموسوعة العربية. ط ١، دمشق.
- الأشقر، أسامة عمر (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م). حقوق الطفل اللقيط من المنظور الفقهي. في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية. العدد: ٧٧ - السنة ٢٤ يونيو ٢٠٠٩ م. الكويت: جامعة الكويت.
- الأنصاري، عبد الحميد (٢٠٠٥م). الجذور الفكرية للتطرف في الخليج. جامعة الكويت: مركز الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية.
- الإيسيسكو (١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م). الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي. ط ٤. الرباط.
- أيوب، حسن (١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م). السلوك الاجتماعي في الإسلام. ط ١، القاهرة: دار السلام.
- البحثري، محمد (١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م). الجوانب التربوية في معجم الأدباء لياقوت الحموي. ط ١، دمشق: دار البشائر.
- بحري، منى يونس والقطيشتات، نازك عبدالحليم (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م). مدخل إلى تربية الطفل. ط ١، الأردن: دار صفاء.
- بدر، سهام محمد (١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م). اتجاهات الفكر التربوي في مجال الطفولة. ط ١، الكويت: مكتبة الفلاح.

بدران، شبل (٢٠٠٩م). *التربية المدنية: التعليم والمواطنة وحقوق الإنسان*. تقديم د. حامد عمار. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

بكار، عبدالكريم (١٤٢٩هـ). *هي .. هكذا: كيف نفهم الأشياء من حولنا*. الرياض: مؤسسة الإسلام اليوم.

البلاذري (١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م). *أنساب الأشراف*.

الجميل، محمد بن فارس (١٩٩٩م). *آراء ابن الحاج في تعليم الصبيان "دراسة مقارنة"*. في *المجلة العربية للعلوم الإنسانية*. العدد: الخامس والستون، السنة السابعة عشرة، الكويت: مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت.

الجندي، نزيه ، و حميدان، أحمد زهير (٢٠٠٥م). *التربية العربية الإسلامية*. في *الموسوعة العربية*. الجمهورية العربية السورية. موقع الموسوعة العربية: <http://www.arab-ency.com>

الجهني، حنان (٢٠٠٧م). *تربية الطفل عند الإمام أبي حامد الغزالي*. في *عالم التربية*. العدد ٢١، السنة السابعة، القاهرة: المؤسسة العربية للاستشارات العلمية وتنمية الموارد البشرية.

الحبيب، سهيل (٢٠٠٨م). *خطاب النقد الثقافي في الفكر العربي المعاصر*. ط ١، الطليعة: بيروت. حسن، عبدالرزاق الحاج عبدالرحيم (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٢م). *أدبيات الطفولة في التراث الإسلامي*. في *قضايا الطفل من منظور إسلامي*. المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو). الحشر، عائشة عبدالعزيز (١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م). *خلف أسوار الحرم لك*. ط ١، لبنان: الدار العربية للعلوم.

الحصري (١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م). *زهر الآداب وثمر الألباب*.

الذهبي (١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م). *الكبائر*. تحقيق سيد إبراهيم. القاهرة: دار الحديث.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م). *سير أعلام النبلاء*. أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط. ط ٢، بيروت: مؤسسة رسالة.

الذهبي، معجم الشيوخ. بيروت: دار الفكر.

رجب، مصطفى (٢٠٠٩م). *في هوية التربية الإسلامية ومنهجيتها*. ط ١، مكتبة دار العلم والإيمان.

روائع جبران خليل جبران (١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م). ط ١، بيروت: دار الجليل.

الزركلي، خير الدين (٢٠٠٢م). *الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين*. بيروت: دار العلم للملايين.

زكريا، فؤاد (٢٠٠٦م). *الصحوة الإسلامية في ميزان العقل*. ط ١، الإسكندرية: دار الوفاء.

- السكري، عادل محمد (٢٠٠٩م). التربية الإيمانية وأبعادها الإنسانية من منظور رسائل النور. في مستقبل التربية العربية، مجلد ١٥، العدد ٥٥، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.
- سكيك، بهيج بهجت (٢٠٠٨م). الفكر التربوي وتنشئة الأبناء عند المسلمين الأوائل. موقع مجلة الوعي الإسلامي - العدد رقم: ٥١٩، ٢٧-١١-٢٠٠٨م. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - دولة الكويت: <http://alwaei.com>
- السيف، توفيق (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م). الحدائث كحاجة دينية. ط ١، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.
- الشاروني، يوسف (١٩٩٦م). مع التراث. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الشحود، علي (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م). الأساليب الشرعية في تأديب الأطفال. ماليزيا: بهانج- دار المعمور.
- الشطبي، خالد يوسف (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م). مدرسة السعادة للأيتام ومؤسسها شملان بن علي آل سيف. ط ١، دار الوطن.
- الشعبي، عبيد بن أبي نفيع (١٤١٣هـ). أخبار النساء في سير أعلام النبلاء .
- شومان، محمد أحمد (٢٠٠٩م). هويتنا الثقافية: مشروع فكري. ط ١، القاهرة: مركز الحضارة العربية.
- الشيخ، عبدالستار (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م). الحافظ الذهبي مؤرخ الإسلام: ناقد المحدثين، إمام المعدلين والمجرحين. ط ١، دمشق: دار القلم.
- الصلابي، علي محمد (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م). الوسطية في القرآن الكريم. ط ١، القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة.
- عبد الرحمن، عائشة (١٩٩٢م). قيم جديدة للأدب العربي القلم والمعاصر. ط ٢، القاهرة: دار المعارف.
- عبدالله، محمد حمدان (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م). الفلسفة التربوية ودورها في التنمية. ط ١، الأردن: دار كنوز المعرفة العلمية.
- عبد المنعم، الحسين محمد (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م). شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ) كتاب الكبائر. في علم النفس في التراث الإسلامي تأليف مجموعة من الباحثين. ط ١، القاهرة: دار السلام.
- العسقلاني، ابن حجر (١٩٩٣م). فتح الباري شرح صحيح البخاري. بيروت: دار الفكر.
- العلاوي، طه جابر (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م). نحو تأسيس علم المراجعات في تراثنا الإسلامي. موقع مدارك: <http://mdarik.islamonline.net>

- علي، سعيد إسماعيل (بدون تاريخ). الخطاب التربوي الإسلامي. سلسلة كتب الأمة (عدد رقم ١٠٠). قطر. موقع إسلام وب: <http://www.islamweb.net>
- علي، نبيل (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م). العقل العربي ومجتمع المعرفة: مظاهر الأزمة واقتراحات بالحلول. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون.
- عمارة، محمد (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م). قاسم أمين الأعمال الكاملة. ط ٣، القاهرة: دار الشروق.
- عمارة، محمد عمارة (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م). التراث.. المفهوم والتجليات. موقع مدارك: <http://mdarik.islamonline.net>
- عيد، عبدالرزاق (٢٠٠٩ م). ذهنية التحريم أم ثقافة الفتنة؟ حوارات في التعدد والتغاير والاختلاف. ط ١، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.
- الفايدي، عيد بن حجاج بن عيد (٢٠٠٨ م). تربية الطفل عند ابن قيم الجوزية. في مجلة مستقبل التربية العربية. المجلد الرابع عشر، العدد ٥١، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.
- القالبي، أبو علي. الأمالي. موقع الوراق: <http://www.alwaraq.com>
- قمبر، محمود (٢٠٠٦ م). دراسات إسلامية في الثقافة والتربية. ط ١، الأردن: عالم الكتب الحديث.
- ماهرزاده، طيبة (١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م). فلسفة كانت التربوية. ط ١، بيروت: دار الهادي.
- محبوب، عباس (٢٠٠٧ م). التربية والتعليم في كتب التراث. ط ١، الأردن: دار الكتب الحديث.
- مدكور، علي (١٩٩٨ م). مناهج التربية بين الإسلام والتراث الإسلامي. موسوعة سفير لتربية الأبناء. القاهرة: سفير.
- مراد، بركات محمد (٢٠٠٧ م). أصالة التجربة التربوية في التراث الإسلامي. موقع مجلة حراء (العدد ٧): <http://www.hiramagazine.com>
- المرجع الأكبر للتراث الإسلامي (DVD). شركة العريس للكمبيوتر. الإصدار الثاني.
- المقدسي، محمد بن مفلح (بدون تاريخ). الآداب الشرعية والمنح المرعية.
- ملك، بدر، والكندري، لطيفة (١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٦ م). تراثنا التربوي: ننطلق منه ولا نغلق فيه. ط ٢، الكويت: مكتبة الفلاح.
- مناع، هيثم (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م). عودة إلى حقوق الطفل في الثقافة العربية الإسلامية. في ما لا نعلمه لأبنائنا. ط ١، المملكة العربية السعودية: مركز الياية للتنمية الفكرية.
- المنظمة العربية للتربية والعلوم (٢٠٠٦ م). إستراتيجية تطوير التربية العربية (الإستراتيجية المحدثة). تونس.
- مورجان، مايكل هاميلتون (٢٠٠٨ م). تاريخ ضائع: التراث الخالد لعلماء الإسلام ومفكره وفنانيه. القاهرة: نهضة مصر.

الموسوعة الفقهية (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م). ط ١، الكويت: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية.  
موقع المحدث (٢٠١٠م). <http://www.muhammadith.org>  
موقع الوراق: <http://www.alwaraq.com>  
الميلاد، زكي (٢٠٠٩م). *هل المثقفون في أزمة*. ط ١، بيروت: الانتشار العربي.  
النحلاوي، عبدالرحمن (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م). الإمام محمد الذهبي: ترجمته وبعض آرائه وأساليبه التربوية: دراسة تحليلية تاريخية. من أعلام التربية العربية الإسلامية. مكتب التربية العربي لدول الخليج.  
النشار، مصطفى (٢٠٠٩م). *في فلسفة التعليم: نحو إصلاح الفكر التربوي العربي للقرن الحادي والعشرين*. القاهرة: الدر المصرية السعودية.  
نصار، حسين (١٩٩٦م). *أمين الخولي*. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.  
النقيب، عبدالرحمن عبدالرحمن (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م). *المنهجية الإسلامية في البحث التربوي نموذجاً: النظرية والتطبيق*. ط ١، القاهرة: دار الفكر العربي.  
الهنيدي، جمال محمد (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م). *شخصية الطفل المسلم كما تبدو في بعض كتب التراث*. تقديم: عبدالرحمن النقيب. ط ٣، الرياض: مكتبة الرشد ناشرون.  
الهنيدي، جمال محمد (٢٠٠٢م). *الإعداد التربوي للفقهاء عند المسلمين*. الرياض: مكتبة الرشد.  
الوشمي، عبدالله (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م). *فتنة القول بتعليم البنات في المملكة العربية السعودية: مقارنة دينية وسياسية واجتماعية*. ط ١، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.  
اليافعي، عبدالله (١٩٩٧م). *مرآة الجنان وعبرة اليقظان*. بيروت: دار الكتب العلمية.

#### أهم المراجع الأجنبية

Al-Rashidi, H (2005). *The Perception of Childhood in the Muslim Educational Thought: An Enquiry into the Views /Perceptions of Kuwaiti Primary School Teachers Concerning the Child-Centred Approach in Islamic Education*. A Thesis submitted to The University Of Birmingham For the degree of Doctor Of Philosophy.  
Boyle, H (2007). Memorization and learning in Islamic schools. In *Islam and education: Myths and truths*. Chicago: the University of Chicago press.  
Boyle, H. N (2004). *Quranic school: Agents of preservation and change*. New York: Routledgefalmer.  
Cook. B. J. (2003). *Islam*. In *Encyclopedia of Education*. Vol. 4 (2ed, ED). New York: Macmillan Reference: Thomson Gale.  
Education Week (2009). *The Obama education plan: an education week guide*. United States of America: Jossey- Bass.

Gil'adi, A. (1992). *Children of Islam: Concepts of childhood in medieval Muslim society*. New York, NY: St. Martin's.

Gunther, S (2007). Be masters in that you teach and continue to learn: medieval Muslim thinkers on educational theory . In *Islam and education: Myths and truths*. Chicago: the University of Chicago press.

Gunther, S (2007). Be masters in that you teach and continue to learn: medieval Muslim thinkers on educational theory . In *Islam and education: Myths and truths*. Chicago: the University of Chicago press.

Kadi, W. (2007). Education in Islam–myths and truths. In *Islam and education: Myths and truths*. Chicago: the University of Chicago press.

Makdisi, G. (1997). *Ibn 'Aqil: Religion and Culture in Classical Islam*. Edinburgh: Edinburgh University Press. Retrieved December 30, 2009, from Questia database: <http://www.questia.com/PM.qst?a=o&d=64318082>

Mardan, N. A (2006). *Childhood in Islam: psychological, social and educational needs*. Kuwait: Al-Falah Books.

Montgomery, H (2003). Childhood in time place. In *childhood understanding childhood an interdisciplinary approach*. Edited by: martin Woodhead and Heather Montgomery. UK: Walton Hall.